لست أنا

عبير المعداوي

لست أنا / قصص

عبير المعداوي

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

OKTOB NET

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١٠ش عبد الهادي الطحان ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

عبد الرحمن حافظ

تدقيق لغوي :

سارة سحان

رقم الإيداع : ٢٢٠٢١/٢٠١٠

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠٦٩- ٨

لست أنا

عبير المعداوي

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع



هل تجرؤ

د



رأيته ينظر إليها في صمت مهيب برغبة مفعمـــة بالإثـــارة والشوق.. لهفة تحتضن أشجانه في لوعةٍ وغرامٍ.

كنت أغار من نظراته إليها.. من إقباله عليها.. من رغبتـــه فيها.. ولو أنها مجرد صورة لي.. ظِل لماضٍ قريب.. امتلكته يومًا ما في فخر..

شيء في صدري يقتلعني من صبري.. ويحدثني عن ضـــرورة المواجهة الآن.. لكن.. هل أجرؤ؟

التمست منه مقعدًا وهمست:

"لم هي؟!"

التفت لي مندهشًا من سؤالي.. كأنه لم يفهم أو لم يستوعب بعد السؤال، فأجابني مستفهمًا:

"ماذا؟!"

كررتُ السؤال على سمعه لعله يفهم ما أعني وأضفت:

- إنها صورة.. مجرد صورة.. ورغم هذا تشتهيها!

تنفَّس وأخفى وجهه عني وهمس:

- ربما لما تحمله من ذكرى كانت يومًا حلمًا، وبات اليوم كابوسًا.

طافت ابتسامة خجول على وجهه توحي بأسفه لعبارته الأخيرة، وربما لما يحدث بيننا..

أيام زمان كنا نتغنَّى بأعذب وأروع ألحان الحب، وننثر الشعر في علاقتنا.. أما اليوم فنحن نعيش الكآبة والملل بكل صوره ولمساته.. تُرى.. لم حدث لكلينا هذا؟

لِمَ رحل الحب؟ و لم هجر الحبيب موطنه في صمت مُطْبَق؟

وتذكرتُ يوم وعدني بأنه لن يتغير، ولن تأتي علينا الأيام طالما كنا معًا يدًا بيد..

وسيظل حبه لي عالقًا في قلبه للأبد.. وأجبته يومها بأن كلمة الأبد تعني حتى النهاية، تُرى.. متى كانت نهايتي؟

هل عندما أنجبتُ له الصغار وانشغلت في تربيتهم والمحافظة عليهم؟

أم عندما ضحيتُ بكياني من أجله لكي يكبُر ويُثْري، ولـــو على حساب متعتي واهتمامي بنفسي؟

أم بعدما نشب الحريق في جسدي والذي التهمني إربًـــا، ثم تركني بجسد مشوَّه الملامح مثير للنفور والشفقة..

وهل من يومها ضاعت صورتي، وضاعت معها حكايتي؟ أم كانت وعودًا زائفة؟!

واليوم.. ألا يمكن أن تجيبني.. أي جرمٍ ارتكبته كي تتركني معلَّقة كذرَّة هواء بلا مصير، تائهة بين الأسئلة التي تسهِّد نومي وتقتل راحتي؟! أجبني يا رفيق العمر.. يا حبيب القلب.

أين مرقدي؟ أين دفئي؟ بل إلى أين رحلت أمانينا الكثيرة؟

أجبني..

ماذا؟ ألن تخبرني ما الأمر؟ و لم تغيرت؟!

لم الصمت وعندك الكلام.. ألن تلتفت لي حتى؟! يا لها من خسارة!! ضاع منك الكلام كما ضعت أنا!!



ملابس نسائية

طرح النهار نوره.. فرغِبَت أمـــي في مـــصاحبتي لمـــشوار طويل.. في شارع مليء بالملابس والعطور والأقمشة.. ذهبت معها والشوق يزيدني بهجة، ولكني رأيت في عينيهـــا لمعـــة لا أعرف سببًا لها.. ظننتها سعيدة مثلي بالمشوار.. والفرحة تقتلع قلبها.. أخيرًا سأشاركها نفس المشوار.. لعلها خائفة عليّ وهذا سبب دموعها..

وتوقفنا أمام فترينة محل للملابس النسائية، وتلمست أمـــي أحد القمصان المعلقة على بابه..

وما زالت عيناها تلمعان..

فسحبت يدي الصغيرة بهدوء وسائلتها:

"هل ستشترينه؟"

ابتسمت والدمعة ما زالت تلمع في عينيها وقالت:

"لمن؟"

تحجرت الأسئلة على لساني، لكن عيني نطقتا بها.

ووقفت هي أمام أسئلتي المتلهفة لإجابة فسجرتها فوق لهيب الجحيم، ما بين رغبة في إخفاء حزنها وأخرى في إيقاظي لحقيقة حياة بائسة يمكن أن تعترضني يومًا، وراحت تغزو ذاكرتها المليئة بالأوجاع، تفتح سطورها فتسكب أنينًا، وفحيح الثعابين يخترق أذنيها، وتكسو جبينها عكرات الأحداث.. تذكرت يوم أحبَّت وأعطت وأقسمت لشريكها بكل أيمانها بأنها ستفعل المستحيل لإسعاده، وكيف وهبته نفسها برضا من الله وأبويها والناس أجمعين.. وتذكرت كيف طعنها بخنجره المسلول طعنة الغدر، ليرتشف من دمائها الطاهرة، ومن ثم أغرقها في سجنه الأبدي، بعد أن سلبها ما تبقَّى من رموز كرامتها الأنثوية، واستباح لذاته الخبيثة الخطيئة.

وتأملتني بصبر، ولم تَبُح بسرها، لكنها هتفت بتنهيدة عظيمة:

"لعل حظك أفضل.. توقَّعي الخير".

وعدنا لنكمل المشوار.. وفجأة سحبت يدها مني.. وتركتني وحيدة في نصف الشارع الطويل نفسه.. سجينة.. ذليلة.. تائهة.. خائفة..

ومرت الأيام..

وطرح النهار نور يوم جديد..

عليه أن يسير المشوار الطويّل نفسه.

وتوقفتُ أمام محل الملابس نفسه، وتلمستُ أحد القمصان..

فسألتني ابنتي:

"هل ستشترينه؟"

ابتسمت، ودمعة تحرقني.. تصرخ في وجهي وتبوح بسر أمي.. بل بسرنا..



طائرة ورق

فوق سطوح بيتنا كثيرًا ما فرشت الأرض بالأماني وأنا أصنع طائرتي الورقية.. وأستمع لعزف رفيق العمر على مزماره..

وعندما تطير الطائرة في عنان السماء وتسابق الريح في الفراغ..

كنت أحلم بأني أطير معها عاليًا.. لأصل لأفق السماء الرحيب.. وآخذ معي رفيقي.. بمزماره وتغريده..

ويحملنا السحاب، ونطوف العالم من حولنا.. كفراش ملون خرج لتوه من شرنقته.. متعطّشٍ لعالم من الحرية والنور..

وذات مساء لمست حلمًا من الأحلام.. وتخيلت أني قد بدأت طريق صعودٍ للسماء..

وأخذني الحلم بعيدًا.. بعيدًا.. لأغفل عن باقي الأحـــلام.. وطاف بي بين جنبات الحياة القاسية.. وأول ما علمني إياه هو أني امرأة لا يجوز لها أن تغزو الفـــضاء أو تـــصنع الطـــائرات الورقية.. إنما زُرِعتُ في قلب الحياة لأهب شـــجرتها ثمـــاري.. دمائي.. أمالي..

وتبعثرت الخطوات..

وتوقفتُ عن الصعود.. وانكسر المزمار..

وبهتت ألوان الفراشة.. وحُجِبت الأحلام.. وطرحني رفيق العمر مهملة بين بقايا الأحلام التي نالها.

وسَكنتُ في محرابه.. يجمع بيننا بيت.. حجرة.. وســـرير.. وكلما ضاقت المسافات.. كلما زاد الفراق..

سألته يومًا عن حلمي بالطيران ولمس النجوم.. وضعني بين كفيه وأجاب:

"ألا تدرين.. لقد لمستِ النجوم.. وأنت الآن تـــسبحين في أفق السماء.. أليس لك بيت.. حجرة.. وسريرا!"

ابن الجيران



كنت في الرابعة عشرة.. وكان في الثامنة عشرة..

وفي يوم.. ساعة عصرية.. كان الهدوء يضم الحي.. لـوَّح بيده من شباكه، وسألني أن أذهب للقائه.

نهرته.. زجرته.. لكنني تمنيت في نفسي الزائغة لـو ألبِّـي رغبته.. وألتقطُ خيوط إرادتي.. وأصطنع لنفسي كوكبًا أطوف به أرجاء سماء حريتي التي لم أنعم بها أو أعلم خصالها.

وبعد يومين..

واجهني بوردةٍ.. بمحبةٍ.. وراح ينثر أشعاره علـى ألحـان أنغامه.. جذبني بقوة جنونية إليه.. فـسرحت في خيالـه.. في أحلامه.. واحتضنتها.. بل احتضنت سعادتي.. وتخلَّيت عـن صوابي وظننت أنها الحرية التي أنشدها، وستصل يداي لعنـان السماء التي حلمت بها.

وما هي حريتي.. فرحتي.. أنوثتي.. إلا برفقة حبيب صادق.

وتسارعت خطى الأحلام.. وأدهشني اللقاء.

قابلني بنظرة متفحصة.. قابلته بابتسامةٍ دافئة.. ذكــرني في دروب أرضه.. فنقشت حروف اسمه في روحي الهائمة بـــه.. وعلى اتساع السماء..

وانجرفت نحوه.. صَدَّقتُ كل أشعاره.. كدت أطــير مـــن سعادتي.. لمست نجوم العشق في محرابه.. وهمست يومًا سائلة:

"أتحبني؟"

أجابني متهكّمًا:

"أحبك؟! أجل.. ألم أهب لك حريتك؟ ألم نتعانق ونتشارك الغرام الخفي؟ أبعد هذا تسأليني عن محبتي؟!"

فسألته:

"إذن.. لِمَ لَمْ تطلب يدي من والدي؟"

ضحك ضحكة رنانة فزِعَت لأجلها طيور السماء وهجرت أعشاشها، وصمت عن إجابة السؤال.

وبعد يومين..

واجهني بزهرة لم ألتقطها.. أرسل ضحكة عبرتني.. وضمت غيري..

كانت لأخرى.. لابنة الجيران التي بجوارنا.. أطَرَقَ بابها بعد أن ملّ بابي.

طبق العسل



طلبني يومًا أن أفتح الباب..

فسألته:

"لِمَ؟"

أجاب:

"لأعطيكِ طبق العسل".

فرحت.. واشتعلت البهجة في صدري.. وقلت:

"أخيرًا سيهبني طبق العسل.. لطالما حلمت به.. والآن وعلى غفلة جاء ليزرعني في جنة الحياة.

سيحيي قصة عشق وُلدت يوم وهبته ذاتي، بوعدٍ منه ورضا مني بأن نكمل المشوار.

وطال الانتظار والشوق لطبق العسل، ولهذا الحلم الذي تمنيته منذ لقائي الأول به.

فتحت ومددت يدي.. لكنه سحب يده وتطرّق لي ناظرًا بسخرية.. ثم قال:

"عن أي عسلٍ تسألين وقد اجتمع عليك النحل؟"

برقت عيني من صاعقة المفاجأة، وتجمــدت معهــا يــدي الممدودة إليه بحسرة.

وانطلق صوتٌ ينعى اختياري في رأسي يلــومني وينطــق بالحقيقة.. حقيقة خيانتي لنفسي.. وخداعي لذاتي.. وســؤال يثير عقلي ويقول:

ألم يتردَّى لسمعك فيها عن نذالة صاحبك مع الأخريــات من محباته، ورغم هذا ظننت أن لديه طبق العسل ليقدمه لك؟

ألم تتوقعي المصير نفسه؟

أجبت صوتي بأني كنت أتوقع كل شيء إلا أن يطبــق في وجهي نذالته.. وكأني أراه وأتعرَّف عليه لأول مرة.. بل إنــني أدركت وللمرة الأولى ذاتها خيبتي، وكم كنت حقيرة حينمــا فرطت في نفسي لأجله.

وابتلعت دناءته وندمي في صمت.

وبضحكة ساخرة نظرت إليه غير لائمة وقلت:

"صدقت.. كيف تهب من وهبتك ذاتها مقابل كلمة زائفــة وكنت أنت لها كل النحل؟!"

أطلال محبتك

خطت آخر سطور كتابها وطوته بجوارها ثم سألتني:

"أتحبيني؟"

تأملت وجهها الحنون بقبلة في حضن يدها وهمست:

"لم أحب سواك.. أنت أقرب إليّ من الروح والنفس وكل ما نالته يداي"..

ضمتني بنظرة هادئة بعد أن انتهينا من تناول عشائنا معًـــا.. تشاركنا فيه نفس رغيف الخبز وكوب الماء.. وتركتني ودخلت السرداب.. لا أعرف لم سألتني هذا السؤال في هـــذه الليلـــة؟ ولماذا قررت هجري وحيدة أعيش بين الأطلال..

وفتحت الكتاب..

لأقرأ سطوره التي طوت عليه كل عمرها في الحياة..

وبِتُّ أعيش على ذكراها.. وأتنفس من خـــلال ســـطورها سطرًا سطرًا.. بحب.. بصبر.. بسلوان.. وجدتها كتبت:

.. إن العمر يمرُّ عليك.. لكنك لا تمرُّ عليه.. تذكّري هذا يا ابنتي وخطي في الكتاب..

وانطويت وحدي في معبدي.. أقص سطور الكتاب لعلـــي أجد حل السؤال.. لم سألتني في آخر السطور عن محبتي؟

ورويدًا رويدًا فاجئتني السطور بسؤال آخر..

كأنما تقول:

أتتذكرين حينما سألتكِ أمك.. أتحبيني؟!

ظللت تبحثين عن سر هذا الـسؤال ونـسيتِ أن تـسألي نفسك.. الأهم..

من ستسألينه السؤال.. وعلى من ستلقين به؟!

ومضى العمر من تحت أقدامي وما زلت أبحـث في دائـرة السؤال.. وأي جدوى من إلقائه.. إن كنـت أعـيش علـى الأطلال؟

المرآة



ليلة حزينة.. مثلما هو قلبك.. فقدت كل من حولك.. لم يعد أمامك سوى المرآة.. تحدِّثينها.. ربما تجيبك.. وتهدئ من روعك..

وقفت وراحت تتكلم مع صورتها في المرآة:

"كيف جعلتني أثق بك وأنت من سعى لقتلي؟ كيف سُقتني لهذا الطريق الموحش للفناء، أمشي فيه وحدي بلا حبيب أو قريب أو صديق؟"

تأمَّلتها الصورة في صمت وباحت بعيون حزينة على حالهما..

أجابتها صاحبتها ناهرة صمتها:

"أترين كيف أصبحتُ وحيدة.. يعاشرني الملل والوحدة.. لماذا.. لماذا هرب مني كل من اقترب.. حتى أصبحت أسيرة سجن العزلة ولا أدري من صنعه لي؟

يومًا ما وعدتني بالحب والرفقة، ومضى العمر ومات الحب قبل أن يقترب من عتبة بابي"..

تنهَّدت الصورة وقالت:

"لا تلوميني على عدم قدرتي على التنبؤ بالمستقبل.. يومها لم أعلم أن قلوب البشر تحجَّرت وباتت خالية.. من أي حب..".

صمتت برهة ثم أردفت تقول:

"لعلمي بك يا صاحبتي.. وتبعًا لك.. لم يزل الحب نابضًا في قلبك.. بإمكانك العودة إليهم.. لكن عليك قبلًا أن تجيبي.. من كان سببًا في الهجران؟ يا صاحبتي.. لقد ولدتِ في ظل عبودية ونرجسية الإنسان لنفسه ولمصالحه..".

قاطعتها صاحبتها وقالت:

" أتحدثينني عن أقدم قصة في التاريخ، أن يشتهي المرء ما في يد غيره! ما دخلها بوحدتي؟"

"لأنكِ لا تنظرين لعين الحقيقة.. ستظلين عمياء.. لم يغادرك أحدهم.. بل أنت من هرب بعدما تحققت من خداعهم..

يا صديقتي من صنع الملل والوحدة والهجر هما يداك..

عندما عشت على وهم السنين.. بأن من يعطي لا يجب أن يأخذ.. أنت من علّمهم النكران..

أبدًا لم تعلمي أن قوانين استمرار الوجـود هـي الأخـذ والعطاء.. يا صاحبتي من يهب روحه لغيره.. لا يسأل بعـدها عن الحياة!

الهروب



من منا يحب أن يأخذه الباطل من الحلال؟

رسالة من سطر واحد تركها عادل لوالده قبل هروبه من البيت.. قرأها الرجل ودموع الغضب تنفجر من عينه غير مصدق أن ابنه.. قد هرب..

وأخذه الضلال بعيدًا عن الحق..

وضاع بين أطراف التطرف حينًا، وتحت عباءة الشيطان مرات أخرى..

واقتربت الأم في أسى وسألت زوجها:

"أكانت رسالة عادل؟"

أجاب:

"أجل".

قالت بحسرة وأسى:

"كنت أعلم أنه سيفعلها..".

نظر الرجل بدهشة إليها وصاح:

"كنت تعلمين وتركتِه؟!"

تنهدت بحرقة من خداع النفس وقالت:

"وأنت أيضًا كنت تعلم أنه سيرحل".

نظر كلاهما لبعض.. ولأول مرة جلسا على كرسي الاعتراف.. يتأملان جريمتهما في ابنهما.. ويطبق الصمت المشتعل خلف صدورهما.

وعادت الأم لتتنهد وتشكو بمرارة عن عدد المرات التي لجأ فيها عادل إليهما ليعرف دينه منهما.. لكنهما كانا دومًا يظنان أن أوان الدين ليس الآن.. فهناك العلم.. وبناء الشخصية.. والمجد المادي.. وأشياء أخر...

وانصرف الولد البار وبات فريسة سهلة بين فكّي الأسد.. مرة بالتطرف ومرة بالانحلال.. وها هو الآن حبيس صنوان الكفر والعربدة.

وتراءت للأب صورة سيدنا إبراهيم حينما كاد يذبح ابنه سيدنا اسماعيل طاعة لله وأمره، فشعر بالخزى والعار من نفسه، وطوى الرسالة والدموع تفتك به ندمًا، فهمست الأم:

"وما فائدة الندم الآن؟! وكيف تداوي جرحًا قد تركناه يلتهب إلى أن تعفن يومًا بعد يوم، ولم يعد له علاج.. نحن من صنع الضلال.. والآن لا نلوم على هروب الحلال"..

خيال الحقول



خيال..

دبت الروح في قلبه.. فصار يمشي في الحقول.. فرحًا بروحه الجديدة..

هرعت لرأسه فكرة.. فتسارع يسابقها.. وطوى دروب الحقول جميعها.. حتى ضمه التعب بلمسة قاسية.. ونضب قلبه عن نبضه.. فتوقف يتأمل ما وصل إليه.. وتساءل بحيرة:

"أين أنا؟! أين أكون؟!"

لم يجد سوى السراب يحيط به ويهيم حوله في خشوع، ولكن الخيال لم يقتنع، فراح يتساءل في ذهول:

"لم وصلتُ إلى هنا ولي روح تسعى.. تعشق.. تغني.. وتجوب الأرض بمرحها؟!"

أنصت برهة لعله يسمع من يجيب، فلم يصل لأذنيه سوى صدى صوته.

فعلم الحقيقة.. حقيقة أنه وحده من يظن أنه يعيش.. وأنـــه ذو روح.. بينما الآخرون لا يرون فيه سوى مجرد خيال جـــاء قدره ليُغرس في الحقول...

من أجل عينيك عشقت الهوى



سألها:

"أتطرِبُكِ هذه الأغنية؟"

أجابت:

"أجل".

قال:

- أتحبينها؟

أجابت:

- نعم.

قال:

- أتصدِّقينها؟

أجابت:

- لا.

قال:

- غبية.. ألا تعلمين.. أن سر الكون في رجل يحب امرأة لا تحبه.. وامراة تهب نفسها لمن لا يرغب بها؟!

انكسار حلم



وَضعتْ إكليل الزهور فوق رأسها وراحت تشدو فوق هامة السحاب.. بالعمري ما عشقت سواك..

وحلّقت السموات والأرض أن تودعه أغلى كنوزها يوم جاء.. وأطلقت الأحلام لتحوم من حوله..

وأخيرًا عاد الطير المهاجر لوطنه وتخلّلت نسمة ناعمة شاطئها المرير..

لبست فيه كل غال وثمين.. وزينت سماء شعرها بنجوم لامعة.. سكبت من ضيائها نورًا متألقًا.

وانتظرت قدومه.. ضمته.. اشتياقه.. نيرانه.. عتابه.. غفرانه.. انتظرت.. وانتظرت...

حتى ذابت الشموع.. وانطفأت النجوم.. ورحل النسيم.. وتحررت الرياح.. لتلتهم أبراج أمانيها..

علمت وقتها.. أنه كان مجرد حلم.. وبات لا يصلح للتحليق.

غدًا يوم آخر

- حدِّثني يا أبي.. ماذا ستفعل غدًا...

- غدًا!! عندي كثير من الأشغال.. يا سومة..

- وبعد الشغل.. هل ستكون ثريًّا.. و ستشفى من أوجاعك.. ستُرحم من زحام المواصلات وعراك الناس.. والجري خلف الأتوبيس.. والوقوف في صف طويل أنت في آخره تنتظر شراء رغيف العيش؟

تأملني وهز رأسه.. وقال:

- ربما يا ابنتي.. فغدًا دومًا يوم آخر.

ظللت أتذكر حديث أبي وانتظاره للغد الأفضل.. لم يكلّ من العمل والاجتهاد والمثابرة لعل هذا الغد يأتي..

ومات والدي وترك إرثه الكبير.. في الغد الآخر..

ومضى العمر.. ورأيت أن الغد الآخر يمكن أن يأتي.. لكن ليس لذي حاجة.. فالغد الآخر.. يختار الآخر.

لمن تشرق الشمس

ذات مرة كتبت رسالة وطويتها في أجندتي.. قلت فيها:

متى أشرقت الشمس و لم أنعم بإشراقها؟!

وظللت أسيرة البحث في صفحات الأجندة.. لعل الشمس تشرق يومًا وأشعر بها.. أرفرف في دفئها.. أغوص في أشعتها.. أزرع بذور الحب والخير في حضنها..

وتركت لي يومًا نهاره مثل ليله.. صيفه كشتائه.. ومضى الوقت.. وانتهت صفحات الأجندة.. وعلى وهلة أشرقت الشمس.. هرعت نحوها.. فوجدتها قد أشرقت في سماء أجندة لا تخصني.. وورقة مطوية لصقت في قلب أجندتي تقول:

"إن الشمس لا تشرق لمن ينتظرها"...

موعد مع النت



أثناء عبورها الشارع المكتظ بالسيارات والعبور.. وسماء كثيفة من دخان عوادم السيارات السوداء.. تذكَّرت..

أول لقاء في الكافي نت..

يوم دعتها صديقتها لجلسة على النت ربما ترزق خلالها بابن الحلال...

وطالبتها بألا تفصح عن هويتها.. وتخفي ما تستطيع حتى توقع بمن تريد..

لم تجد دعاء في نفسها غضاضة من الإخفاء أو الكذب طالما سيحل لها عقدة السنين.. وستنال بعد عمر الثلاثين عريس الهنا.. وهو من سيحول لقبها من الآنسة عانس لمدام فلان..

ومع أول محاولة.. سقط أحدهم.. سألها:

- من أنت؟

أجابت:

- حلم حياتك..

قال:

- كيف تكونين؟

أجابت:

- كما تراني وترسمني في الأحلام كل ليلة..

قال:

- أراك تشبهين الفنانة فلانة الفلانية.

صاحت ضاحكة:

- بالفعل أنا أشبهها جدًّا.. وأنت ماذا تعمل؟

أجاب:

- أعمال حرة.. أقصد رجل أعمال.

قالت:

- جميل.. أنا أفضل الرجل الحر...

ومن دون انتظار طلب لقاءها.. فأجابت بالموافقة.. واعتمدا مقابلة بعضهما على كورنيش النيل.. حتى لا يعرفهما أحد أو

يصادفهما قريب.. لكن الحقيقة أن دُعاء كانت تخشى أن تتورط بالذهاب لأي مطعم فاخر.. وكذلك أشرف!

تسارعت حدة خطاها وهي تعدو لتعبر الطريق وتصل سور الكورنيش في موعدها.. وفرحة تحذها للطيران والتحليق ليس فقط الجري.. وخاطبت نفسها بفرحة:

"أيعقل أن يتحقق حلم العمر أخيرًا.. سبحان الله.. لم أعرف قيمة النت إلا اليوم.. والله يخلّي سيدي الكمبيوتر"..

وتقدمت خطواتها في ثبات.. وقلق قد تسرَّب لقلبها يحدثها.. ماذا لو لم يتعرَّف عليك؟

لكنها عادت لتطمئن نفسها بأنها اتفقت معه أن يرتدي قبعة فوق رأسه وهي كذلك.. ومضت دقائق تلو الأخرى.. ومن بعيد التقطت عيناها صورة شاب يافع متوسط الحال.. يترجَّل بصعوبة من أحد الميكروباصات المزدحمة.. وملابسه المهرولة والقبعة تظهر هشاشة حاله.. حدثتها نفسها.. "أيمكن أن يكون.. هو؟!!"

قالت لنفسها.. "لا.. لقد أخبرني بأنه ثري.. وهذا لا يبدو عليه الثراء..".

عاتبتها نفسها قائلة:

"ثريٌّ أم فقير.. المهم يقع في يدي، ظل رجل ولا ظل حيطة".

والتفت أشرف من حوله يبحث عن شبيهة الفنانة فلانة الفلانية.. لم يجد أمامه سوى قبعة فوق جسد سمين قصير، وشعر أجعد، وعيون بنية، ووجه أسمر داكن السمرة، يأكله حب الشباب وتغطيه الندبات.. تسمَّر مكانه عابثًا وما زال يبحث عن فتاته.. اقتربت دُعاء مبتسمة له لعله يتقدم.. فأدرك أشرف وقعته، وأن فتاته الجميلة الرشيقة ذات العيون الخضراء والوجه الأبيض ما هي إلا تلك!

ترنَّح حوله.. ومع أول أتوبيس أمامه التقطه.. قذف نفسه فيه ليبتعد بعيدًا عنها ويرحل لأبعد ما يكون.. وشيء داخله يجبره على الضحك.. ويقول:

"الإنسان ينسى نفسه دائمًا"

هرعت دعاء تجري خلفه.. تناديه.. تتوسل إليه أن يعطيها فرصة.. تناشده أن يعود ويسمعها.. اندفعت نحوه بلا وعي.. ليصدمها أتوبيس آخر مسرع.. ويلتهمها الطريق.

الفاتنة والصوت الجميل



اليوم هو يوم مولدي.. أشعر بأن الحظ التقطني وقابلني أخيرًا بعد طول انتظار..

لم أفرح من قبل كما أنا الآن.. عندما وصلني خطاب لجنة الاستماع بموافقتها على الاستماع لي في مسابقة اختيار الأصوات العربية الأصيلة.. لم أصدق نفسي.. ليس لأن صوتي سيئ - لا قدر الله.. بل على العكس.. فكل من سمع صوتي من أساتذتي في معهد الموسيقي أشاد به وتمنى لي النجاح والتوفيق.. لكن ما أخشاه حقًا هو أن أفشل لأي سبب آخر ليس لي به يد..

آه.. تسألني لماذا لم أصدق رسالة اللجنة؟!

شيء طبيعي.. بسبب الواسطة التي أفسدت كل شيء - من وجهة نظري.. وأنا ليس لي واسطة.. لذلك لم أصدق أن الزمن تغير وبدأنا نرى بذور التقدم في الاختيار.. أشعر أن المسابقة ستكون نزيهة جدًّا.. وستعتمد في الأصل على الصوت الجميل أولًا وأخيرًا..

لكني ما زلت خائفة وقلقة..

يا إلهي من هذه الجميلة.. بل رائعة الجمال.. كل مفاتنــها تخرج من بنطالها القصير جدًّا.. الذي سـقط عـن خـصرها فجأة.. وقميصها يكاد يخفي بعض الأشـياء.. أمـا شـعرها وقسماتها فحكاية أخرى مدهشة..

حقيقةً كل شيء بها يثير الأعصاب.. يا خبر!! أهكذا أتكلم عنها وهي أنثى مثلي؟! فماذا عن الـشباب؟!! الله يكـون في عَونهم.. يا قلبي عليهم.. حينما ترى عيونهم وتُحرم أيديهم.. وماذا يفعلون أمام البطالة والفقر وقلة الحيلة؟!

ما هذا؟! أسمعهم ينادون اسمها.. أهي مشتركة أيضًا؟!

والله شيء عجيب فعلًا.. لهذا كانت تصيح بصوت مـزعج جدًّا؟! يا الله.. لقد اعتقدت أنها تسخر من أحـدهم وتقـوم بتقليده! علمت الآن أنها كانت تجرب حنجرتها المكسورة قبل دخولها.. ترى كيف يصف الانسان هذا الصوت؟ أهو طـرب أم غناء أم استعراض.. أجل استعراض فتلك الأيام كل من لـه صوت الضفدع ويريد أن يهز أوصال خصره يدّعي أنه فنـان استعراضي.. آه.. والله الفن الاستعراضي مظلوم أيضًا.. المهم.. لِمَ نذهب بعيدًا؟ دقائق وسنرى النتيجة..

خرجت بسرعة.. سعيدة والفرحـــة تنطـــق في وجههـــا.. والجميع يهنئ كذلك.. لا بد أنها نجحت في الاختبـــار.. والله بُشرى خير.. ألم أقل إن اليوم هو يوم الحظ الجميل..

إذا كانت هذا الصوت المزعج قـــد نجحـــت.. إذن مـــاذا سيفعلون معي.. خاصة عندما يرون كـــل شـــهادتي المؤهِّلـــة للغناء.. والحمد لله الذي وهبني موهبة الصوت الجميل..

خرج السكرتير الآن.. لعله سينادي اسمي.. لم يعـــد هنـــاك غيري..

وسمعت صوته ينادي.. أماني.. أماني..

آه.. أخيرًا نادى على اسمي.. إذن فلأدخـــل.. بـــسم الله الرحمن الرحيم..

ما هذا؟!.. من هؤلاء؟!.. لِمَ ينظرون لي هكذا ويبتسمون ويتهامسون؟!

حسنًا.. سأقطع ضحكهم وأغني..

أحدهم يشير لي بالتوقف..

ماذا يقول؟!

"يا آنسة أماني.. صوتك معقول.. لكنك تحتاجين لتمـــرين طويل.. نحن آسفين يا آنـــسة حـــظ آخـــر مـــع التوفيـــق.. بالسلامة"...

هل سمعتم ما سمعت؟! لقد رفضتني اللجنة..

قالوا إن صوتي ليس جاهزًا..

كيف هذا؟! أنا بدون دراسة وبموهبتي فقط.. أســـتطيع أن أحيي أكبر حفلة!!

ما هذا الهراء؟! ما الحكاية؟ أصحيح أن صوتي لم يعجبهم؟!

هزني أحدهم وقال:

"أنصحك يا أماني أن تصرفي نظرك عن الغناء"..

حدقت في وجهه من أثر الصدمة الأخرى، والكلام حُـــبس في حلقي..

فهمستُ باندهاش:

"لماذا؟"

أجابني:

"لا أنكر جمال وعبقرية صوتك.. لَمْ نر نوعية هذا الصوت من خمسين سنة.. لكن للأسف خلقتك بشعة.. يا آنسة.. الفن جمال.. أتسمعين؟ الفن جمال قبل أي شيء..

وأنت لا مؤاخذة.. محجّبة.. وما يظهر منك لا يقترب من الجمال في شيء.. اعذريني.. أنا لا أقصد الإهانة.. بل النصيحة.. من الآخر.. ارحمي نفسك من ذل السؤال وابحثي عن مكانك في مجال آخر.. مجال عمل بعيد عن الجمال..".

صدمتني.. قتلتني كلماته.. لكنه أيقظني من سبات طويل.. اسمه الفن الأصيل.. آسفة من الآن اسمه فن العري الجميل!



ليلى والكمبيوتر

أسرعت في عجلة لأضع أولادي في أسرّتهم كي ينـــاموا.. ويهدأ البيت أخيرًا بعد صخب يوم طويـــل.. كنـــت أســـابق لحظاتي حتى أهنأ ببعض الوقت مع زوجي مـــصطفى.. طالمـــا اشتقت لهذا الوقت وأحببته.. المهم يجـــب الآن أن أســـتحم.. وأرتدي ثوب نومي الوردي الذي يفضله.. ولمسة من عطري الذي يسحره.. هكذا أكون قد أنجزت كل شــــيء في وقـــت قصير.. ولعل مصطفى انتهى من عمله أيضًا.

الحقيقة أنا أشعر بالحيرة من أمره.. هناك شيء في صدري يحدثني أن خلف مصطفى سر يخفيه.. ولا أعلم ما هي حكايته؟ كل يوم يتركني ويسهر حتى الصباح خلف الكمبيـــوتر.. وإن سألته يقول:

"عندي شغل كثير"..

يا لله.. شُغل.. شُغل... لكن اليوم لن أتركه.. أنا مشتاقة له جدًا.. وها هو أحمر شفاهي.. وهكذا أبدو أجمل امـــرأة في العالم..

يجب أن أناديه الآن مرة ثانية.. ربما نسي..

مضت دقائق..

سأدخل عليه.. يمكن يتخلّى عن شغل الليلة.. ألم يشتَقْ لي مثلي؟!

سأنتظر.. وسأنتظر.. حتى يهب نسيم عطره ويمتزج بأنفاسي المتعطشة له.. سأنتظر.. لماذا لم يأت؟

منذ ليالٍ عديدة وأنا أناديه.. ولم يأت.. حتى بات بالي مشغولًا ليلًا مع نهار.. ألا يعلم أن كل شيء ليس له معنى بدونه.. ألا يعلم أنه أحلى شيء يصبرني على همومي اليومية.. ألم يشعر بأنه يعطي لوجودي معنى؟! آه يا ربي.. وما العمل الآن في هجرانه لي؟

سأناديه مرة أخرى.. وسأنتظر...

أشعر أن مداعباتي وقبلاتي أو حتى ثوب نومي لم تخلص بنتيجة معه..

آه لو كنت أعرف سر انخراطه في عمله أثناء الليل؟

للأسف.. ضاعت مني الراحة والهناء منذ اشترى هذا الكمبيوتر.. في الحقيقة أنا أكرهه.. أشعر كأنه أنثى أخرى أخذت زوجي مني..

هل سيأتي الليلة ليروي ظمئي؟ لقد تبدّلت أحوالنا كثيرًا منذ هجر نومه وظل عاكفًا خلف جهازه.. وإن سألته يضجر ويثور، ثم يقول بغضب إن مسئوليته نحونا هي ما تدفعه للسهر لينجز أعماله الكثيرة.. وكي يأتينا بالمال..

الله يلعن الفلوس.. هي الأخرى عدوتي.. من يومها وهي تتحكم في العباد..

لكني سأنتظر.. وسأمنع عيني من النوم...

..

رن جرس المنبّه..

يا إلهي.. إنها السادسة صباحًا.. لا بد أن أنهض لأوقظ الأولاد كي يذهبوا المدرسة.. يجب أن أبدل ملابسي أولًا.. يا خسارة.. لم يلمسها مصطفى..

حسنًا عند تناول الفطور ستكون فرصة جيدة لأتحدث معه.. لابد أن أكلمه وأعرف سر إختفائه طوال الليل.. أنا لست مقتنعة أبدًا بأنه يمضي الليل في العمل.. منذ متى أصبح يكترث بعمله هكذا حتى يمضي ليله ونهاره فيه؟!

"يا مصطفى.. انتظرتك طوال الليل"..

لِمَ لَمْ ينظر لي أو حتى يرفع عينه عن الطبق ويعيرني أي انتباه كمن لم يسمع ما قلته.. سوف أسأله ثانية..

" مصطفى....."

"ليلى.. قبل أن تقولي شيئًا.. هل ذهب الأولاد للمدرسة؟"

"نعم.. تناولوا فطورهم.. ثم جاء أتوبيس المدرسة.. وذهبوا كالعادة.. أجبني يا مصطفى.. أنا انتظرتك طوال الليلة الماضية"..

ما به؟ لِمَ ينظر لي مليًّا هكذا، كمن يفكر في حجة يخترعها حتى يقولها؟

"تكلم يا مصطفى.. لماذا نهضت يا حبيبي بسرعة؟ ما الأمر؟"

"ليلى.. عندي شغل مهم لابد أن أنتهي منه.. هذه لقمة عيشنا.. ولا إيه"..

"إيه يا مصطفى.. حسنًا.. ألن تجيب على سؤالي؟!"

"أي سؤال؟ اسمعي رأسي به ألف شيء.. والعمر لا يرحم.. هه.. سوف أمشي الآن.. أتريدين شيئًا؟"

"لا يا سيدي.. مع ألف سلامة.. لكن اسمع.. سأنتظرك بعد الظهر.".

"لا تنتظري.. بعد الظهر سوف أنام.. لأني مرهق جدًّا".

"تنام.. ومرهق جدًّا!! نم يا مصطفى.. يا الله.. صحبتك السلامة يا أبو الأولاد".

هه.. ماذا أفعل الآن؟ آه..

أعود لشغل البيت.. اليوم الغسيل كثير.. ملابس الأولاد ومصطفى تفوق التصور والوصف..

آه.. يا الله.. سقطت من يدي ملابس مصطفى الداخلية.. حسنًا.. ها هي.. سوف أضعها في الغسالة أولًا.

ما هذا يا مصطفى؟!!

يا مصيبتي!!!

في أي شيء كنت تمضي ليلتك يا أبو الأولاد؟!!

أهذا هو سر اختفائك طوال الليل خلف الكمبيوتر؟!

لست أنا

مضى هزيع من الليل في قلق وصراع.. بين رغبة ثـــائرة.. وضمير غاضب..

قامت سلوى.. استعاذت من الـــشيطان.. ورجعـــت إلى منامها.. وبعد حين نهضت فزعة من كابوس مرير لطالما رافقها منذ مدة بعيدة.. خلعت قميصها.. ورجفة قد تملكـــت مـــن شفاهها..

رجفة تثير في نفسها شوقًا للعودة للحلم الذي يسيطر عليها من أول الليل.. كان شيئًا كالهذيان.. يراودها.. ينتزعها مـــن ذاتها.. يرميها في بحر هائل الموج من رغبة مثيرة حُرمت منـــها طوال عمرها.. رغبة لم تنلها رغم زواج دام عشرون عامًـــا.. لكنه لم يطفئ ولعها بها.. وحلمها الدائم بالوصول إليها..

وعادت لتنام.. ولكن النوم رفض أن يهبها تلك الراحـــة.. فاستُفزَّت من مرقدها.. وارتدت ملابسها ثانيةً لعسل الهـــدوء يحتضنها ويضمها ولو لبضع دقائق..

أرخت رجليها على جانب السرير وظلت فترة تراود نفسها.. تسكنها أشباح رغبة الهوى الفاجرة.. تُرافقها لفحات لهيبها.. فتجذبها لشاطئ الحب الأثيم.. وتطوف بها حول أرجاء المعصية.. حتى انتهت وتلاشت من أمامها صورة الإنسان البريئة النقية داخلها.. وحلّت مكانها صورة أخرى لامرأة لا تشبهها.. امرأة هوت بها الشهوة لغيابة جب الخيانة والضياع.. وبسرعة الريح فتحت عينيها وكأنما كانت تعيش كابوسًا في اليقظة.. هتفت في نفسها: "حتمًا هذا مجرد كابوس ووسواس شيطان.. يجب التمرد عليه.. فلست أنا من تفعل هذا..".

وفي الصباح.. سارعت بقبلة على رأس زوجها الذي لم يعرها أي انتباه.. سحبت نفسها بصمت وشيء بداخلها يدفعها للصراخ.. لكن ما فائدته؟! فمهما ثارت.. شكت.. بكت.. في النهاية حتمًا ستعود لما كانت عليه..

هي تعلم ذاتها جيدًا.. كما تعلم أنه رغم فتور العلاقة بينهما.. إلا أن زوجها رجل طيب القلب.. ولا يعيبه سوى نظرة التحقير منها كأنثى.. وامتلاكه لها على أنها شيء من كماليات الحياة.

ومهما أجابت طلباته سيظل يشكو.. يهجو.. ينعتها بظل الأنثى.. ليأكلها الملل.. والشوق للحياة مثل أي شيء حي.. وفجأة اختلطت الأحاسيس داخلها.. أصابها الملل.. وأخذها الرغبة لارتكاب أي شيء يثير في نفسها شعور الانتصار عليه..

أحيانًا ودَّت لو لم تكن أنثى إنسان.. بل أنثى أي مخلوق آخر.. ربما لم يكن عليها وقتها كل تلك القيود التي تقيدها.. ووهبتها الطبيعة طلباتها دون إلحاح.. أو كلمة إساءة..

بالطبيعة كانت ستبدو أفضل.. بحرارتها.. وتوهجها الذاتي.. لن تخشى شيئًا.. ورفيقها لم يكن لينعتها بظل الأنثى.. وتهرب من دائرة الزمن الرذيلة التي تأخذ ولا تعطي.. وما زالت تدور وتدور...

اليوم.. لا يوجد ما يفرقه عن الأمس أو الغد.. كلهم متشابهون..

ناداها زوجها مودعًا.. غادر الأولاد معه للمدرسة.. وبقيت هي مع أفكارها.. وحلم الليل المرير...

تلملم أشلاء نفسها.. راحت تؤدي واجباتها اليومية من تنظيف البيت وإعداد الطعام.. وفجأة رن هاتفها الخلوي..

سمعت صوتًا جميلًا مثيرًا من خلفه كاد يتسلل لقلبـــها.. وهـــو يهمس برقة.. ويسألها..

"أبحث عن حبيبتي.. هل هي هنا؟!"

لم يكن سؤاله أكثر غرابة من رقصـــه الغريـــب.. ولـــو أن الأعجب أنها أحست بألفة لصوته.. واستحسنت صورته التي لم ترها.. فسارعت إليه وكأن هناك سحرًا يجذبها إليه.. لم تبادله الحديث بل سكنت صامتة.. تنصت إلى صوته وهـــو يعيـــدها لحلم الليلة الماضية..

وتمادى الرجل ذو الحس الساحر في لمس مشاعرها العذراء.. راح يسمعها ما لم تسمعه من قبل.. ويشعرها بأنوثتها الضائعة بين اتهامات زوجها وإلحاحه في تنقيصها.. وأطاعتها حواســـها فاستجابت لكلماته العذبة بهمس حريق الـــشفاه المـــستعرة.. وداعبت يداها خيوط الليل من رأسها.. لتهيم فـــوق عـــرش الإحساس المباح..

.. وكلما اقترب.. اشتد الصراع بـــين رغباتهـــا المحرومـــة وصوت يصيح ويهتف بأنها ليست تلك المرأة السيئة..

وزاغت عيناها بتنهيدة حارة أيقظتها على شاطئ الهدى..

لوحة عبقرية صنعها رب العباد ليصبِّر كل مبتلى بالحرمان..

هال سلوى ما رأت.. فامتنعت عن متابعة الرجل.. لكنه عاد لإغوائها من جديد.. كمن يعلم أن صمتها ليس نهيًا ولا زجرًا له.. بل استمتاعًا بما يفعله.. واستجابت له وعاودتها الشهوة المركّبة في الإنسان... وهذه المرة أحست أن آية الله كأنها وُضعت بين عينيها.. فصرخت.. صرخت بكل شيء.. وصاحت في الرجل ناهرة إغوائه.. ثم أغلقت الهاتف.. ومالت بظهرها نحو الحائط مستغيثة بعينها بالله.. الذي خلقها وقضى عليها بالحرمان.. لتطوف في دروب المعصية في أحلامها حينًا.. وفي دروب الطاعة أحياناً أخر.

وتطرَّقت بخلدها لأمر حياتها منذ ميلادها.. لأي سبب جاءت؟.. وما معنى الحياة بالحرمان؟!

واقع الحب.. هو إمَّا حب طاهر أو رغبة أثيمة لا يلتقيان.. وإن تنكرت أثوابهما..

الحب.. الحرمان.. الطاعة.. والمعصية.. هم أثواب الحياة..

الحياة التي حُرمت منها بإرادة غيرها..

والتفتت من وراء جبل الأوهام لتصحو على حقيقة أزمتها.. وتستفيق من غفوة الضلال التي كادت أن تهوي بها في

بحر المعصية.. وهتفت في نفسها بألَّا فائدة لعيشها فوق الأرض أو في السماء إن لم تحيَ بإرادتها..

وقالت بصوت عالٍ يهز السماء:

"أنا لست جبلًا من جليد يا زوجي.. ولست أنا العـــاهرة أيها الآخر..

أنا إنسان حر وهبه الله اليقين بحب الحياة..

اذهبا.. ابحثا عن دمية تـــستطيعان أن تـــسلباها حياتهـــا.. دنياها.. آخرتها.. فأنا لن أكون إلا لنفسي.

الكتاب



استيقظت من النوم بحلم ما زالت صورته في عيني.. ذهبت أقصه لأمي لعلي أجد عندها تفسيرًا له..

ضمَّتني بحب وقالت بنفسٍ طيبة:

"الرؤيا من عند الله.. فإن كان حلمك من هـــذا النـــوع.. خذي به.. وتمسكي بحقك فيه.. احكِ يا رحمة.. عن رؤياكِ"..

قلت:

"انطلقنا ثلاثة من شارعنا نجري في ثبات لنصل للمدرسة.. وسألت إحداهن: يا مايسة.. كم يبعدنا عن المدرسة؟

أجابت: خمس عشرة دقيقة وبعض الثواني.

كانت مايسة جميلة رقيقة ورفيقة العمر والدرب والأحلام.. وبدأنا نحن الثلاث في سباق طويل.. من سيصل أولًا للمدرسة سيأخذ الكتاب.. والله لا أعرف ما سر هذا الكتاب أو أهميته..

لأني لم أقرأه أو فكرت فيما به.. لكن أخذتني الرغبة في السباق.

وكعادة جودي عندما تحب أن تستأثر بشيء لها وحدها.. أن تنطلق بمفردها وتتركني ومايسة نجري بلا سؤال من منا ستسبق الأخرى.. فنحن رفاق..

وراحت مايسة تسرع في جريها.. ساعة تسبقني وساعة تسير معي.. أما أنا فالتزمت السرعة الثابتة الهادئة.. بقسط وفير من التنفس العميق.. وجدتها فرصة أعمل خلالها تمرين التنفس الذي علمتنا إياه أستاذتنا الرياضية..

أما مايسة أخذها الإجهاد من الجري في الطريق الطويل.. وأحسست بأنفاسها تتقطع.. فوقفت لانتظاري..

كان بعض الصبية يعاكسونني ويشاغلونني أثناء مشيي.. ففزعت.. وشعرت بالخوف من اقترابهم..

لكن الله أرسل لي من يحرسني.. فوجدتُ الأب يوحنّا والشيخ محمد فؤاد يطمئنانني بنظرة هادئة، ويشجعاني على الاستمرار في السير بثبات، وأن لا أهتم بالكلاب..

أسرعت.. وفي طريقي التقيتُ بأحد الصبية ممن كانوا يراودونني ملقًى على الرصيف وبه إصابة.. لكن الشيخ محمد فؤاد طلب مني أن لا ألتفت إليه وأهتم بسباقي، وأترك أمر هذا الشاب المصاب له..

وأخيرًا لحقت برفيقتي مايسة في شارع رطب يخفه نسيم الربيع العليل من كل ناحية.. لكنها كانت متعبة ومجهدة من أثر الجري الطويل.. وأنا أيضا كنت أشعر ببعض التعب، لكني ضممت كتفها لصدري لتميل وتستند عليّ.. كان المشوار طويلًا بالفعل من شارعنا للمدرسة.. والسباق صعبًا..

فقلت لها:

"كان يجب أن نركب أي وسيلة مواصلات".

ضحكت ببشرى فوزنا أنا وهي على السواء وقالت:

"لقد انتهى المشوار.. فلا تندمي.. ولقد فزنا به معًا يدًا بيد".

تساءلت متعجبة:

"إذن أين ذهبت جودي وقد سبقتنا في الطريق؟"

أجابتني بنظرة لومٍ وعتاب، لأننا تركناها تفعل هـــذا دون اعتراض وأجابت:

"لقد كُسرت رجلاها.. وعـــادت للخلـــف ولم تلحـــق بالسباق".

كنت حزينة من أجلها.. وتمنيت لو تعود ثانية لـــصحبتنا.. وهمست في نفسي:

"بعد المدرسة سأذهب لزيارتها وبصحبتي مايسة".

والتفتُّ خلفي لأرى الشيخ محمـــد فـــؤاد والأب يوحنـــا يضماني بنظرة مباركة ويباركان الانتصار..

في الحقيقة رغم صعوبة السباق وطول الطريق لكني شعرت بالفخر.. وما فرَّحني أن يد مايسة ما زالت في يدي.. وكـــان هذا هو الانتصار الحقيقي الذي تمنَّيته..

ودخلنا للمدرسة يا أمي.. لكني وجدتها قد تحولت لجـــامع كبير.. تُزَف فيه فتاة رائعة الجمال على الـــشاب المـــصاب.. والشيخ يعقد نكاحهما على طرف طرحتها البيضاء وطـــرف منديله الحرير..

اختلط على رأسي الصغير الأمر.. وخشيت أن يكون اسمي ما يكتبه الشاب.. ولكن الشيخ فؤاد قال:

"ليس اسمك يا ابنتي.. ليست جائزتك.. أتتذكرين؟"

فنظرتُ للشاب طويلًا ثم قلت محذرة له:

"لقد وهبك الله جميلة الجميلات.. احفظ أختنا ولا تخنها.. إنها تستحق رعايتك وإخلاصك".

وضمَّني الشيخ محمد فؤاد بنظرة كأنما رسالة تهنئة..

وسلمني هو والأب يوحنا الكتاب..

الكتاب.. جائزة السباق..

والذي لا أعرف عنه شيئًا سوى أنه كتاب..

قرأت عنوانه.. فسمعت صوت الشيخ محمد فؤاد يعلمني ما به.. وقال:

"إنه الكتاب الجامع لجميع الأديان.. فيه تتشارك اليهودية والمسيحية والإسلام.. ويركز على نقاط التشارك والاحتواء.. يبني مجتمعًا متعاونًا تسوده روح المحبة والتآلف والسلام.. مجتمعًا لا يفرق بين بني وطنه.. ويهب الجميع الحقوق بالتساوي".

وأطل الأب يوحنا على صدري وقال:

"قلبك هو الكتاب.. احفظيه وانشريه بقيمـك وبمُثلـك وبحبك.. سيعيش الكتاب.

وانظرى للتاريخ.. من قبلك.. ها هو صلاح الدين.. يداويه طبيب يهودي.. وقد احتمى في الكنيسة.. ترعاه وتقف خلف ظهره وجميع جنوده.. تعضدهم.. وتؤازرهم.. يوم جاء الأعداء يحملون الصليب ويقولون للمصريون هذا ذا.. رفضهم النـاس مسيحيون ومسلمون ويهود.. وردُّوهم خـائبين.. خاسـرين الرجاء.. وقالوا لهم:

"لو شاء الله لجعلنا أمة واحدة.. لكن بحق الإله الواحد الذي لا نعبد سواه سنحمي هذا الوطن الذي شاء الله أن يجمع شمـل العباد على أرضه.. في محبة وسلام"...

والآن يا ابنتي أعلمتِ ما هو الكتاب؟

أمي وعمري والقرش

وأنا على الربابة أغني وأقول "تعيشي يا مصر"..

تعيشين يا بلدي.. لو تعلمين مقـــدار حبـــك في قلـــبي.. وافتقادي لرؤيتك.. حقيقةً كل ما أتمنـــاه الآن هـــو أن أقبـــل ترابك.. وأتنفس شذا هوائك.. يا أغلى بلاد الدنيا..

آه.. الحمد لله.. كلها ساعات ونصل بالسلامة إلى الـــشط الآخر الغربي.. بعد غياب ثلاث سنوات..

آه.. أرى عيني ما زالت متعلقة بالسعودية.. حبي الآخـــر.. هي أيضًا حبي الكبير.. كيف أستطيع أن أخفيه؟ كيف أمنـــع تعلُّق قلبي بتلك الأرض المباركة؟ سبحان الله.. من خلق داخلي كل هذا الحب لهاتين البقتعين فوق الأرض؟.. لكن شيئًا غريبًا أشعر به.. شيء يحدثني بأني لن أرى السعودية مرة ثانية، بـــل بأن عليّ توديعها وتقبيلها القبلة الأخيرة!! يـــا الله.. لم هـــذا الشعور يتسرب لقلبي هكذا.. بينما أنا أعلم جيدًا أني ســـأعود

بعد أسبوعين؟! لقد وعدت المدير بهذا حتى لا يتوقف العمل في غيابي.. كم هو عجيب أمر الإنسان.. أتذكَّر حالي قبل أن أعمل بالسعودية، كان كل حلمي أن أكون من أحد المحظوظين، من يعثرون على عقد عمل وتأشيرة دخول للإقامة.. كان بالأمس حلمًا واليوم بات أمرًا طبيعيًّا..

.. لكن الأعجب أن يفصل بين البلدين هذا البحر الصغير.. وأنك تجد الطقس على البر السعودي ساخنًا ونارًا حارقة، أما على البر المصري برد وثلج.. ومع هذا اشترك البحران في شراسة أسماك القرش.. والحق هو متوفر بغزارة في كلا الجانبين.. أينما تذهب في مصر أو السعودية.. اعلم أنك ستقابل بسمك قرش.. وإنت وحظك..

أتذكَّر قبل رحيلي عن مصر أني كنت أتمنى شراء حوض سمك زينة صغير.. وكعادة كل شيء في حياتنا.. ليس كل ما يتمناه المرء يتحقق في وقته، يمكن أن يتأخَّر لحينه.. تمامًا كما حدث معي.. الآن أصبح عندي حوض سمك، ليس كبيرًا، لكنه جميل وأنا راضٍ به.. على الأقل وجدت شيئًا أعيش معه.. أتعلَمْ.. أنا أفكر في حالي في مصر.. من سيعيش معي.. أو من سيستقبلني.. منذ ثلاثة أعوام سرقني أخي.. ومن يومها لم يعد

له صلة بي.. وتوفيت أمي العام الماضي.. وبهذا لم يعد لي من ينتظرني أو يتلهّف ويشتاق لعودتي.. عجيبة هي حال المغترب.. ألا يكفي أنه يشرب من جحيم الغربة وتعب الوحدة في الوقت الذي يحسده أهل بلده على النعمة التي أعطاه الله إياها؟! بل ويسعون لنزع كل ما تملكه يده تحت ما يسمّى بالحظ التعس، والظروف الصعبة.. آه.. لا أعرف هل أسامحهم أم أدعو لهم الله بالهداية.. لو يفتحون قلبي سيعلمون أني حزين تعس.. مضى العمر بسرعة ولم أهنأ فيه بيوم راحةً أو سعادة..

آه.. لا أدري لِمَ تترائى أمامي صورة أمي تمد يديها لي؟ يا ترى لماذا؟

أفتقدك يا أمي.. ولو تعود الأيام سأترك كل شيء وأرجع لحضنك..

يا خسارة الأيام التي رحلت في حلم جمع المال والوظيفة.. لو كانت بلدي وفّرتها لي.. لَمَا كنتُ تركتك تعيشين وحدك.. حتى أخي لم يأبه لخالتك وعمرك الكبير..

يا الله.. أنا أشعر بشيء غريب يحدث من حولي.. وأشم رائحة حريق وشياط.. رائحة كريهة جدًّا.. هل تسمعون مثلي هذا الصياح والصراخ؟!!

.. ماذا يجري.. لِمَ كل هذا العويل.. يسا خسبر.. النساس تتشاهد! المركب يميل.. والموج عنيف.. البحر هائج.. يا رب سترك.. أسأل هذا الرجل ربما يخبرني ما الأمر.

"يا أخ.. أتعرف لماذا الناس تصرخ؟"

ما به يحدق بي هكذا كأني قلت شيئًا غريبًا؟

"يا أخي...

"يا الله.. المركب بتغرق يا أستاذ.. أنت نائم من ساعتها.. اتشاهد قبل ما نقع"..

"نقع.. نقع.. أين؟.. أين نقع؟ في البحر؟"

"إنت نائم ولا سكران.. يا رب سترك.. أفق من ذهولساك يا أخ.. يقولون عليها قديمة.. وكل حاجة بها معطلة.. المركب مالت على جنبها.. المركب تقع.. اتشاهد يا أخ.. اتـــشاهد.. رحمتك يا رب.. يا الله انظر لتلك المـــرأة ورضـــيعها.. لقـــد سقطت في المياه.. النجدة.. يا قبطان.. اعمل حاجة.. يا رحمن انجدنا.. يا رحمن.. يبدو أنها النهاية في تلك الظلمة الكالحـــة.. اغفر ذنوبنا يا رب.. اغفر لنا تشردنا.. اغفر يا مولانا ذنـــب

البحث عن لقمة العيش والستر.. كان نفسي استّر ابنتي قبل الموت.. يا رب استرها عني.. يا الله.. يا الله.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمد رسول الله"...

لقد استفقت أيها الرجل الآن.. أجل.. ماء البحر البارد وموجه الناطح أفاقني.. لا تغضب لأنك سقطت غريقًا ومئات آخرون معنا.. لقد كنا جميعنا منذ البداية أموات في ثوب الحياة.. غرقى في بحر ظلم الإنسان.. والطمع.

عفوًا يا أماه.. الآن وقد عرفت لم مددت يدك لي.. أصارحك بأني نادم.. نعم نادم.. يا خسارة على العمر الذي راح خلف حلم سمك الزينة.. والوظيفة.. والمال.. والعروس التي لم أقابلها.. كله راح.. كله ضاع.. كله سرقه أخي!

سمر الروح



شجرة المشمش وحدها التي التفتت إليها.. كمن كانت تعرفها من قبل.. وقضت بجوارها عمرها كله.. أقبلت عليها بنَهَم وعيون ضمها التعب الحزين.. وما لبثت حتى تحولت بهاتين النظرتين الوديعتين المملوئتين بالمحبة لشيء يهيم حولها.. حول المنزل الصغير.. بحدائقه الشابة.. والتي اختزلها وَهَن الصيف قبل أن تشيب.. والبوابة العملاقة التي تفوق قوتها بوابة قصر عابدين.. لكنها خلت من لونها الذهبي.. ووهبها الشتاء لمسة ساحرة.. فلا بقيت على لونها ولا استعارت لونًا محددًا لها.. ندَّت من عيونها الدموع.. ولفتت وجهها الخجول عني في خشوع.. كانت السيدة تبدو في ملامحها فتاة ناضجة قد تجاوزت لتوها الخامسة والعشرين.. مع إنها قالت في أول كلامها معي إنها في الأربعين من عمرها.. لكن لا شيء يظهر هذا العمر سوى نظرة عينيها الحزينة. فحسمها البطء الرشيق..

بثوبها الأنيق الضيِّق الذي يظهر خطورة قسماتها، ووجهها المستدير كطبق من نور ذهبي.. مع شفتيها المكتنزتين فوق فمها الصغير.. ولونها الوردي الزاهي.. كل شيء بها يثير من لا يثار.. ويجعل من لا اهتمام له بالحور العين يهتم.. وراحت من جواري تحصي الخطوات الرشيقات بين زهور البنفسج.. وجلست بجوارها تحدِّثها.. ثم مالت نحوي بريحها العطر ولمستها الأنثوية تلك.. وسألتني بلطف بالغ:

"أين ذهب عم سالم عن حراسة المترل؟"

اقتربت منها أكثر بتأمُّل لأعرف من هذه السيدة الغريبة التي أراها لأول مرة ومع ذلك تعرف أشياء عن البيت ومن عاشوا به كأنها واحدة من أهله، فتنهَّدتُ وأجبتها بصبر:

"عم سالم تعيشي أنتِ.. توفي بعد وفاة الدكتور فريد مباشرة.. لم يتحمل فراقه.. كما لم يرضَ بخدمة غيره".

وإذ بالسيدة تنهض من مجلسها بالصمت ذاته، والعيون الندية نفسها، وتذهب حيث كان يقيم الرجل، وطالبتني بأن أُدخلها حجرته، فقلت لها:

"لا مانع لدي يا سيدتي سوى أن الحجرة لم تُنظف بعد، وكل شيء بها كما هو."

وأدرت وجهي عنها خجلت أن أقول لها أن عم سالم قد أوصى كما الدكتور فريد أن لا يقترب مخلوق من فراش المترل ومقتنياته، وأن نترك كل شيء على حاله لحين عودة سيدة المترل، وإجلالًا للوصية قمت بتنفيذها، رغم علمي بأن البيت ليس له سيدة أو صاحبة، كما لم يكن لعمي دكتور فريد زوجة وهو على قيد الحياة، لكن الأمور ستتغير منذ اليوم، بعد أن أعلنت نيتي في بيع المترل.. فما الجدوى أن يبقى المترل بين أطلال الذكرى الراحلة، بينما نحن محتاجون للمال الذي سيأتي من بيعه.. وليرحمنا الله ويعفو عني، وليسامحني عمي لتفريطي في وصيته.. لكنه نسي أني وريثه الوحيد أيضًا...

ودونما إذن دخلت السيدة الحجرة.. وراحت تطوف بعينيها حتى وقعت عيناها على السرير والوسادة.. فمدَّت يدها وسحبت من تحتها المصحف.. قبَّلته بحرارة.. وفتحت صفحاته.. ووجدَتْ ورقة صغيرة به.. ضمتها بين يديها بحزن شديد.. الأمر الذي استفزَّني ودفعني لسؤالها:

"مدام شاهيناز.. هل جئت لزيارة المترل أم لشرائه؟! هل تعرفين المترل من قبل؟"

مسحت دموعها وهمست بصوت خفيض:

"أعلم أن المترل للبيع.. كما هي حياتنا كلها.. كل شيء به بات يصلح للبيع"... صمتت برهة التقطت أنفاسها وشيء ثقيل فوق صدرها يعيق الكلام على لساها.. لكنها استجمعت قواها وقالت:

"سأستسمحك بطلب آخر.. هل لي أن أطّلع على حجرات المترل من الداخل؟"

تأملتها من جديد و لم أقوَ على أن أعترض أمام عينيها الوديعتين بأهداهما الطويلة، ونظراهما التي تطيل العمر لمن يسعده حظه بنظرة منهما.. فأخذهما مباشرة للداخل وقلت:

"لم يدخله أحد منذ يوم وفاته بناءً على طلبه، وتركنا كل شيء به كما هو.. تفضلي"..

وإذ بالسيدة مرة ثانية تطوف بأرجاء المترل كمن عاشت به من قبل.. تعرف كافة تفاصيله.. ووجدهما تتأملني برهة.. وقالت:

"أنت حقًا تريد بيع المترل؟ أليس كذلك؟"

"أجل.. أجل".

"لكن عمك لم يمت سوى من شهرين فقط.. ألا تريـــد أن تترك له أي ذكرى؟"

برقت عيناي من السؤال واقتربت منها وقلت:

"أتعرفين عمي رحمة الله عليه؟"

نظرت إلي مطوَّلًا ثم ألقت نظرة مثيرة وترجَّلَــت أمــامي وقالت:

"وهل هناك أحد لا يعرف هذا الطبيب العبقري في مــصر والعالم كله؟"

أجبتها:

"أجل.. معكِ حق".

"ومع هذا تريد بيع ما تبقَّى منه!!"

"تلك هي الحياة"...

"نعم.. معك حق.. تلك هي الحياة.. الحـــي أبقـــى مـــن الميت"..

"الدنيا تريد ذلك".

حينها رمقتني بنظرة غريبة جدًّا، اهتز جسدي منها، نظـرة صحبتني فيها لذكرياتي مع عمي.. حينما طلب منـه جـدي الزواج.. فإذا به يخبره بأنه قد تزوَّج بالفعل، وحينما أراد جدي معرفة زوجته.. فما كان من عمي إلا أن كشف عـن سـره الخطير، سره ذاته الذي جعلني أقيم دعوى بالحجر عليه يومًـا ما.

أجل.. لقد كان عمي فريد عاشقًا لامرأة كنا نظنـها مـن الجن.. أو أنه قد أصيب بالجنون.. عاش عمره كله ينتظرهـا وتنتظره على حد قوله.. كانا يلتقيـان بـالروح.. يسمعها وتسمعه بالصوت فقط في الذهن.. يحبان بعـضهما لدرجـة العشق.. يتبادلان الغرام الطاهر دونما حاجة للجسد.. كانـت ترافقه في كل خطواته.. وتعرف عنه كل شيء يحيط به.. وهو كذلك..

ومع تعثُّر جدي في محاولة علاجه.. خاصة بعـدما صـحبه لكثير من الأطباء والعرّافين والشيوخ؛ كي يـشرحوا حالتـه ويساعدوه في الشفاء.. لكن الجميع فشلوا..

وفي النهاية.. وقرب موت جدي.. تحـدث معـه.. بـل ونصحه بالنسيان؛ لأنه لا أمل له في تلك العلاقة.. وإلا فعليـه

أن يعالج نفسه من الهلوسات ومرض الضلالات التي يصيب بها الإنسان.. وهو نوع من الجنون..

مع هذا حرص الرجل على أن يعيش حياته كلها وفيًّا لتلك المرأة التي كان يهيم بها حبًّا وولعًا.. ولأجلها ترك أشياء كثيرة كان يومًا ما يعشقها.. كنت أتذكر حينما كنت صبيًّا صغيرًا أنه كان عاشقًا للنساء، لكنه منذ ارتبط بتلك المرأة كف عن جميع النساء.. وابتعد عنهن.. وخلَّد نفسه ودنياه لها.. كثيرًا ما كنت أجده يبكي.. وفي لحظات أخرى يضحك.. وحينما كنت أسأله كان يقول لي مرة إنها تعرَّضت لشيء يؤذيها.. أو إنها مريضة.. ومرة أخرى يقول لي إنها قالت شيئًا يضحكه.. وهكذا عاش.. ورغم موت جدتي.. لم يتغير شيء.. ومضت الأيام والأعوام.. وانفض من حوله جميع الناس الذين ظنوا به الجنون.. حتى أنا.. من ائتمنني على أسراره.. لم يكن مني إلا أن أهزمه في آخر أيامه.. وأُقدم على قضية الحجر بادعائي إصابته بالجنون.. ونتيجة لهذا توفِّي وهو ما زال في العقد الرابع من عمره.. لم أرحمه كما لم يرحمه مخلوق.. حتى أثناء دفنه.. كان الناس يهمسون في حقه بالجنون.. يا لها من ذكريات مريرة...

واستيقظت.. استيقظت من مرارة صنع الإنسان وطمعه على عيني السيدة الشغوفة التي كانت تحدِّق في وجهي كمن يقرأه وتتطلع لمعرفة الكثير مني.. فسألتها:

"هل هناك ما يزعجك يا سيدتي؟"

لم تجبني.. بل إنها لم تلقِ بالًا لسؤالي.. كمن رمت بنفسها في بحر عميق وراحت تغوص في دروبه البعيدة.. وكلما تتعمق كلما تكتشف شيئًا يثير الشجن في نفسها فتبكي وتبكي.

وفجأة جففت دموعها.. ووارت هذا الحزن الذي هجم على ملامحها الرقيقة العذبة وسألتني:

"هل أحببتَ يومًا؟"

"لا".

"لِمَ؟"

"لا أعرف.. ربما لأني أسير على درب أوسكار وايلد عندما قال مقولته الشهيرة: "الكراهية عمياء.. وهكذا الحب".

ابتسمت بسخرية وألقت نظرة غير راضية.. ثم أردفت قائلة:

"ألم تسمع قول مارثا بيك حينما قالت: "من قال إن الحب أعمى فهو مخطئ، الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نرى بعضنا بدقة متناهية".

تنهَّدتُ محاولًا تغيير مجرى الكلام وقلت:

"لا أدري.. ربما لا يتماشى مع شخصيتي أن أكون شخصًا محبًّا.. وكما قلتُ الحب أعمى لا يميز".

فهتفت قائلة:

"ليس الحب هو الأعمى.. لكن فقدان الحب والحرمان منه هو العمى ذاته".

سَكتُّ عن الكلام.. وأحسستُ أني بِتُّ متضايقًا من أسئلتها وتعليقاتها الساخنة.. فعمدت إلى شغل نفسي باللعب في أوراق شجرة قد جفت أوراقها ونضبت عنها الحياة.. فتمزقت أوصالها ونفشت أوراقها مع أول لمسة".

واستدارت مدام شاهيناز بجواري وقالت:

"لا تغضب من كلامي.. لقد مات عمك عاشقًا وهو ما زال صغيرًا، وأظنه لم يكن نادمًا على النهاية السريعة؛ لأنه عاش الحياة إلى آخرها، وتمتع بما لم يتمتع به غيره".

نظرت لها والكلمات تتعثر في حلقي.. وكل كلمة تحمل سؤالًا متلهِّفًا لإجابة.. لكنها قاطعتني وقالت برجاء:

"أريد أن أرى حجرة نوم دكتور فريد يا أستاذ وائل.. ممكن؟"

"أجل بالتأكيد.. تفضلي".

صعدت درجات السلم جميعها في خطوة واحدة، ودون أن أوجهها للحجرة.. توجهت بنفسها إليها ودخلتها.. ومِن ثمَّ ذهبت نحو السرير وارتمت فوقه تحتضن فِراشه بشكل أثار في نفسي كثيرًا من الشكوك.. وبِتُّ على يقين من أن تلك السيدة تعرف عمي ودخلت المنزل من قبل.. وفجأة نهضت وسحبت من خلف السرير مجموعة من اللوحات.. وراحت تتأمل كل لوحة بعد الأخرى.. حتى كانت الأخيرة.. انهارت معها السيدة وانفجرت بالبكاء وألقت بنفسها فوق السرير تبكي بحرقة.. وازداد قلقي واندهاشي.. وقبل أنا أسالها وجدتها تقول لي:

"قتلت عمك بطمعك.. كما قتله الناس بعدم تصديقهم له واتهامه بالجنون.. انظر لهذه اللوحات مليًّا وستعرف الحقيقة".

وكانت المفاجأة الكبرى.. وقعت عيني مباشرة على إحدى اللوحات.. فإذا بهم جميعًا ينتمين للسيدة شاهيناز التي تتحدث معي.. لفتت عينها عني.. ومن ثمَّ نظرَتْ للصور وقالت بأسى:

"كل الناس كذّبته واتهمته بالجنون، تمامًا كما فعلوا معي! أنا سمر الروح التي حدّثتك عنها عمك.. أبدًا لم يكن مجنونًا.. كما أني لست من أهل الجن".



لم يتغير الزمان

كان كل شيء ساكنًا.. غير أن النفـــوس يختلجهـــا الملـــل والقلق وهم تحت أهبة الانتظار للفرج القريــــب.. والترقّـــب يقتلهم شغفًا لموعد الولادة.

واشتد برحيم القلق والأسى.. وخُيل إليه وسط السكون أن هاتفًا يحدِّثه ويقول:

"ستنجب هذه المرة ولدًا.. وستغلق أمك فمها وســـتمتنع عن كلماتها الحارقة وتحريضك على الزواج بأخرى.. اطمئن.. لقد فعلتَ ما يجب أن تفعله".

وفجأة كسر صنم الهدوء صـــرخات مدويـــة أرعـــدت في حجرة العمليات كأنما هي طلقات رعدية تهز الكون.. وتوالت الصرخات المؤلمة وتلاهثت لهفات الأنين لرحمة من الله ليفك بها العسر وينفرج البساط ويولد الطفل المنتظر.

أحس رحيم بخفقات قلبه تتهاوى.. وبسحابة ثقيلة تخـــيِّم فوق جبينه تمنع عنه الرؤية.. فسأل أمه وهو خائف:

"ما بها هذه المرة؟ لقد طال الأمر جدًا؟ في الولادات السابقة كانت تمضي في لمح البصر كأنما هي هرة تنفض غبار فروها عنها".

امتصت أمه شفتيها بسخرية وقالت:

"أجل.. لقد ارتاحت جدًّا لدرجة أنها لم تلحظ تعبنا نحن بخلفتها السودة".

قبضت الكلام في حلقها ورمقته بنظرة متفحّصة ثم استطردت قائلة:

"حتى أنت خشيت أن تبوح لها بأي شيء كأنك تخاف منها"..

تنهد رحيم وعلق قائلاً:

"أمي.. هذا ليس وقته.. جيلان تلد الآن.. والأخبار ليست طيبة.. يبدو أن حالتها عسرة".

"آه.. حنان قلبك هذا هو ما خلّف وراءه اربع بنات.. ولم يأت الولد".

تأمّلها بنظرة عميقة، تنحّى عنها جانبًا ثم قال:

"لقد طمأنني الطبيب هذه المرة.. ورأى بعينيه من خلال أشعة السونار أنه ولد"..

لَوَت أمه شفتيها وتمتمت:

"حسنًا.. غدًا سنرى.. ولِمَ غدًا؟ كلها دقائق وينزل مولود الهنا ونرى إن كان طبيبك صادق هذه المرة ولا مثل كل خبطة"..

صمتت برهة ثم أردفت تقول:

"اسمع.. ربما تظن أن عندي شيئًا في صدري نحو جيلان.. أبدًا.. هذا غير صحيح..

البنت طوال عمرها مؤدبة ورقيقة الطبع معنا.. ولا يختلف عليها اثنان في أخلاقها وطيبة قلبها.. لكن أنا أريد الولد الذي يحمل اسمك ويخلده بعد عمر طويل.. ولا تقل لي إن هذا تقليد قديم وإن الناس تغيرت؛ لأن لا شيء سيجعل من الرجل امرأة ولن يجعل المرأة رجلًا.. ولو كان الدم ينفع يتغير ليصبح ماء يمكن الولد يبقى بنت".

ثم انفجرت باكية وانسربت في ظلام ذاكرتها وقالت:

"أتتذكر أن والدك كان يحلم بك.. وظللت أنا مع عبث السنين أعاند حظي على أمل أن أنجبك.. ولم أفلح حتى قرر

والدك تطليقي.. لكن الله سترها.. وقبل أن ينطق بكلمة الطلاق أصبت بإغماءة.. وعرفت بعدها أني حامل.. وظللت رهينة خلف أسوار الظنون تسعة أشهر.. حتى هللت عليّ كيوم العيد.. لكن يا خسارة.. لم يفرح أبوك يومين.. كمن قُدِّر له ألا يهنأ بما حصل عليه.. رحل في حادث القطار وتركني وأنت مع أخواتك الخمس..وأنا يا ولدي لا أريد لك هذا المصير. وقتها لو قال والدك سأذهب وأتزوج بأخرى لكنت وافقت.. لكنه كان يريد تطليقي.. وما طلبته منك ليس تطليق حيلان.. بل الزواج بأخرى.. هذا شرع الله يا ولدي.. لِمَ نخالفه وقد جعله لنا الله مخرجًا؟"

ووقف رحيم حائرًا مع كلام أمه.. طامعًا في رحمة الله أن يجنبه هذا المصير.. وشعر بأن مصائب الدنيا تجمعت فجأة فوق رأسه.. وحدثه قلبه خائفًا.. ماذا سيحدث إن أنجبت زوجته بنتًا أخرى؟! حتمًا ستلهبه أمه بتحريضها له بالزواج بأخرى، لكنه يحب زوجته.. وكيف له أن يغدر بهذا الحب أو يقتل وليد الأمل.

كانت ابنته الصغيرة ذات الاثنا عشر عامًا تنظر إليها بغضب وتتابعهما بصمت، ثم نظرت في عيني والدها وسألته:

"ما الفرق بين الولد والبنت يا بابا؟"

واستيقظ رحيم من شروده على انعكاسات النجوم خلف النافذة، تسرَّب قليل من ضياء خجل أن يبوح إلا بومضات ضعيفة فاستدرك قائلًا:

"لا فرق يا ابنتي.. صدقًا.. لا فرق"..

لكن الفتاة الصغيرة كأنها الجني الذى حُرر من فانوسه، فقالت لأبيها:

"وحينما لا يكون هناك فرق لم كنتَ وجدَّتي تمسكان عصا كالأستاذ في المدرسة لأمي المسكينة وإن لم تنجب ولدًا فسوف تطبقان عليها العقاب؟"

امتص رحيم سؤال ابنته الوعر بابتسامة هادئة دون أن يبدي أي اعتراض أو غيره وقال:

"نحن لم نفعل يا ابنتي"..

ومضت البنت خلف ستار النافذة ترقب بخشوع طائرة عملاقة أرادت الهبوط فوق أرض المطار.. وتذكرت معها رحلة سفر أمها الطويلة مع الغربة.. كم كانت تخشى الطيران.. وتخاف الطائرات.. وتذكرت كيف كان إحساسها حينما

كانت الطائرة تهبط بها.. وكيف كانت تمسك بمقعدها.. وكانت هي تلاحظها وتضحك عليها.. وما هي إلا لحظات وحطت الطائرة فوق الأرض.. فضحكت أمها بقوة وهي تقبض على يدها وتقول:

"جذع الشجرة الكبير يخرج منه دومًا فروع كثيرة.. وأنا أريدك جذعًا قويًا عملاقًا لا يخاف.. هل حرصتِ يا فتاتي على هذا؟"

ندَّت دموعها وقالت:

"أجل يا أمي.. سأتعلم الشجاعة"..

وعلى غرة انفتح الباب وخرجت الممرضة محمَّلة بخبر ما، وكأن أمه لمحت الخبر عن بُعد، فقالت لها:

"لا تقولي مبروك الست ولدت بنتًا جميلة مثل القمر؟"

تلاقت عيونها مع عيون الممرضة التي تجنَّبت الصمت واتجهت للزوج وقالت:

"مبروك يا أستاذ.. المدام وضعت بنتًا مثل القمر.. ربنا يبارك".

وقبل أن تُكمِل جملتها صرخت أمه بلطمتين على وجنتيها والتفتت بعيدًا.. بينما رحيم كمن شله الخبر وبرقت عيناه.. فظل ينظر للاشيء وظل حبيس الصمت لفترة.. لكنه عاد واستفاق على صوت الممرضة وهي تقول:

"الولادة كانت عسرة.. والأم تعبت جدًّا وأصيبت بنزيف.. في الحقيقة ما زالت حالتها حرجة.. ادعُ الله أن تنهض بالسلامة".

بُهِتَ رحيم وخلا وجهه من أي تعبير.. وأحس بجفاف حلقه كاد يشق عنقه..

وتأمل أمه وهمس:

"أشعر بالخوف من فقدان جيلان يا أمي.. ليتني سمعت كلام الطبيب بعدم الحمل"..

"ليتك لم تفعل.. وكنت تزوجت من تستطيع الإنجاب.. بصراحة جيلان نحس علينا.. ولن تأتي لك أبدًا بالولد الذي تحلم به"...

صرخت الابنة الصغيرة في وجهها وقالت لأبيها:

"بابا.. أسمعت كلام جدتي؟ ما هي جريمة ماما كي تظلمها هكذا؟ يا بابا تكلم.. ألن تدخل لتطمئن على ماما وأختي الصغيرة؟"

صرخ رحيم وأجابها بعنف:

"اصمتي يا أميرة.. ما زلت صغيرة على هذا الكلام.. ليس لكِ شأن بحديث الكبار".

وهبَّت لفحة باردة فأزَّت لها القلوب.. وخرج الطبيب والأسف والأسى يعتمر وجهه.. وقال معتذرًا:

"أستاذ رحيم.. دقيقة من فضلك".

أزاح رحيم نفسه بعيدًا عن الطفلة حتى لا تسمع.. لكنها ارتمت في حضنه وقبضت على يده برجفة حَذِرة والدموع تفتك بعينيها المستديرتين وأردفَت:

"علمتني ماما الشجاعة.. لا تخف يا بابا.. ماذا عندك يا دكتور؟"

تأمَّلها الدكتور برهة وإحساس بالحزن يعصر قلبه فقال بصوت خفيض:

"أستاذ رحيم.. البقاء لله.. نحن نأسف.. لقد قمنا بكل ما لدينا من قوة.. لكنها إرادة الله أن يأخذ عطيته.. لقد توفيت المولودة"..

وصمت برهة بينما رحيم يأكلـه الـذهول ولا يـستطيع استيعاب ما قاله.. لكن الدكتور سرعان ما سحبه بقـوة مـن صدمته الأولى وأكمل:

"كما تعلم أن السيدة جيلان كانت حالتها الصحية سيئة.. وحملها كان خطرًا عليها.. لقد وضعت السيدة جيلان ولـدًا وبنتًا.. وكما ذكرتُ قبل قليل أن البنـت توفّاهـا الله فـور نزولها.. أما الولد فهو بحالة جيدة".

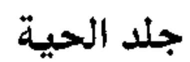
أخذ رحيم نفسًا عميقًا ثم أخرجه بتنهيدة راحة قد أزاحت عن صدره وشم ألم يعصره.. وتبدت ابتسامة خفيفـة علـى وجهه وقال:

"الحمد لله على كل شيء.. إرادة الله فوق كل شيء".

لفت الدكتور عينه وتنهّد ثم استطرد قائلًا:

"أستاذ رحيم.. هل يمكن أن تسمعني للنهاية من فـضلك؟ في الحقيقة لقد تعرَّضَت السيدة جيلان لنزيـف قـوي بعـد الولادة.. وتدهورت حالتها بعدما عرفت بمـوت الرضـيعة.. وللأسف.. لم نتمكّن من إنقاذها.. لقـد توقّـف القلـب.. وأسلمت الروح لله الخالق... البقاء لله".

ساد الذهول فترة طويلة والتحم بالسكون.. ودوَّى إنـــذار عربة الإسعاف تقتحم خلوتهما.. وسكتت الأفكـــار.. كمـــا جفت ينابيع الكلام.. وتنهدت الأم في اســـتياء بـــلا خجـــل واعتدلت قامتها.. أما رحيم فنفض عن رأسه الصدمة ســـريعًا كأن لم يحدث شيء.. وذهب للترحيب بولي عهده.


جلد الحية

أعلنت المضيفة الطائرة عن وصول الطائرة إلى مطار لنـــدن معلنةً هبوطها بعد لحظات قليلة.. تنفس محيي بقوة.. وأحس في أعماقه بسكينة ممزوجة بالتأوُّه والأنين.. وكأن ثورة بركـــان بداخله قد أوشكت على الانفلات لتزيح عن صـــدره نقمـــة وحزن عمر طويل قضاه خلف أقفاص عبودية وطنيَّته..

وسلطة مستبدَّة تأبى ألا تكون يد جلاد لكل مـــن يخـــالف أوامرها أو ينطق بما لا ترغب به، وهو لم يعرف مهنة ســـوى الكلام والكتابة..

كلام يزين به الحياة الجامدة تحت ركام نظام دكتـــاتوري، ويتستر خلف ستار الحرية والديمقراطية الزائفة.. ديمقراطيـــة لا تعرف سوى حرية الكلام في المسموح، أما غيره فأمامه سوط الجلاد.. وآه ثم آه منه..

وترنح محيي يمينًا ويسارًا.. وتنهد بحرقة.. وأحس بألم حـــاد في رأسه.. وأوجاع ذكريات أمست بعيدة.. لكنها ما زالـــت نابضة.. شحب وجهه.. وامتقع لونه.. وتمتم في نفسه قائلًا:

"ومع هذا لم يكن ألم الجلاد وسوطه أقوى من ألم سوط أهلي وأقاربي عليَّ.. آه وآه من شعبي وأهلي الذين تبرَّأوا من معرفتي وحلفوا يمين الله أهم ليس على علاقة بي، وهكذا دونما ضمير يعاتب أو عقل يعلق على فضحية عملهم المشين، ألقوا بي للذئاب لتفترس جسدي كيفما تشاء وينجون بأنفسهم..

غشت عينيه سحابة ثقيلة من الدموع فتركها تهدر وتحكي عن أوجاع رحلته الطويلة الماضية..

حكاية عن كابوس أسود أطلق رياحه العاتيه لتتلاعب بشطئان صفوه.. فلا تلبث أن تأخذ قسطًا من الراحة حتى يركض خلفها قابضًا على معصم أنفاسها حتى تتلاشى..

تنهد محيي بحرقة ومسح حبات العرق عن وجهه وراح يتمتم:

"ماذا أروي وأقول عن إنسان كان ضحية فشل مجتمع بأسره.. ورحلة من الرعب أظلت سماءه.. رحلة من أوجاع وهموم.. كانت تتطاير كحبات الرمال حين هبوب العاصفة على الصحراء.. لتغمرني حتى الغرق.. وخوف وذعر من مجهول.. اللحظة القادمة.. هل سيدق الباب؟.. هل سأُجَرُّ على الأرض ككلب ضال قُدِّر عليه أن يحسو التراب حتى يجد نهايته بطلقة نارية موجهة لرأسه؟!

ماذا أقول؟

وكيف أقص الحكاية؟

حكاية.. حلم قُتل يوم مولده وهو يصرخ مستغيثًا.. ألا يوجد من ينقذه؟!

وأخيرًا هبطت راحلتي إلى هنا.. حتمًا سأجد ضالتي التي طالما بحثت عنها وتمنيتها.. هنا سيكون شاطئي الذي سأنكب فوقه وأكتب عليه ما شئت بحرية، دون أن يلومني لائم أو يوقفني جيش من أمن الدولة.. أُسحَب حينها كخروف بهيمي إلى ورشة العمل لدى أجهزتهم الأمنية..

لا.. لا.. لن يتكرر هذا ثانية أبدًا.. اليوم هو مولدي وعتقي من ضباب جو فاسد تحكمه قوانين وشريعة غبية لا تعرف سوى سلب عقل الإنسان حريته، وتحوله إلى بهيم يغوط في غائطه دون أن يتقزز أو يرتعد..

أعلم أن الأيام المقبلة ستكون لي.. ولن تكون لهم.. لن أكتب لهم.. بل عليهم.. سأنقل صورهم الحقيرة.. وسأتكلم عن تخلفهم ووضاعتهم.. وليس لأحد شيء عندي.. لقد قطعت حبال مراكبي معهم.. لم أعد أنتمي إليهم.. ولا تربطني

صلة قرابة بهم.. لم يترك لي أحد منهم شـيئًا داخـل قفـص صدري لأتذكره به أو يدل على انتمائي له، إنـي منـذ الآن مقطوع الجذور.. من ماضٍ ليس لـه ديـار.. أمـا الحاضـر والمستقبل فسيولد هنا فوق أرض هذه المدينـة.. وستـصبح دياري ولها انتمائي وولائي.

ولكني لن أكف أبدًا عن فضح هؤلاء الوحوش الحمقـى.. من اليوم سيكون قلمي سلاحًا لأحاربهم به وأكشف حقيقتهم الرخيصة، أفجِّر رؤوسهم بأفعالهم الضئيلة.. وما يتمسكون به من قوانين لا تنظِّم إلا لحماية عظمائهم.. ودين لا يفـسر إلا رخصة لجريمة لهم..

ومضت الأيام وذاكرته ما زالت تتراقص أمامه تنثر بصيصًا من أوجاع قديمة.. تلهث أنفاسه لمزيد من الحقد والكراهيـة.. فما زالت يده تمسك بالقلم وتكتب وتكتب إلى أن أصبح أحد أكبر الكُتَّاب المشهورين بالعداء لبلاد العالم الثالث، والتي ينتمي إليها.. وتزايدت مطبوعاته ومنشوراته، واقتحم كل وكـالات الأنباء والتلفزة، وبات يغذيهم بحقيقة وطنه الـسابق، ويعلـن وبقوة عن رفضه له، وانتمائه لوطنه الجديد الذى وهبه الحيـاة

وحرية العقيدة والحب والسلام والأمان.. لم يترك كلمة مـــن الصفات النبيلة إلا ووصف بها وطنه المضيف، وبـــالعكس.. لم يترك فرصة إلا وانتهزها لقضم أظافر وطنه السابق.. كان يجرح بعنف.. حتى أدمى القلوب مشرطه العنيف.. وكلمـــا زاد في التعذيب والعنف.. كان يشعر بمزيد مـــن الراحـــة والهـــدوء والسكينة..

لكن.. لم ينتهِ الكابوس.. بل ظل يلاحقه..

كان كل ليلة ينهض من نومه وملابسه غارقة في عرق كمن يسبح في بحيرة عميقـــة.. ويـــداه ترتجفـــان، ووجهـــه أزرق شاحب.. وعيون دامية دامعة.. وقلب مظلم مكفهر.. وصدر مكتئب معتم الظلمة..

ورغم وعده لنفسه بأن هذه الليلة هي الأخيرة.. ولن يراوده هذا الكابوس ثانية..

لكن الليالي توالت دون أن يتوقف كابوسه عن مهاجمته بلا هواده.. كمن يناطحه وينافسه بين أمواج ذكرياته أو أفعاله.. المتضاربة.

وازداد عليه الأمر حتى وقع فريسة الهموم والعزلة.. فاقترح بعض أصدقائه المقربين له بزيارة طبيب نفسي.. وبعد اعتراض

شديد.. وإلحاح منهم.. سمع لنصائحهم وقام بزيارته.. ومع هذا لم يسترح.. ولم يهنأ بليلة هادئة.. كان يشعر دومًا بأن هناك من يلاحقه ويكتم أنفاسه..

فما زال الكابوس ينهشه بأنيابه السامة الحارقة.. وتأكله نار الحيرة وتقذف به أمام طاولة ضميره.. وتسأله:

"لقد فزت بغنيمة الانتقام.. فلم تترك شخصًا فوق تراب أرضك إلا ونهشتَ لحمه بأنيابك السامة، وبثت سمومك في أحشائه، لم تترك شيئًا ذا قيمة إلا وشوهته وضيعت حقيقته.. لم تتناه عن فعل شيء..

لقد طالت يداك كل شيء بما في ذلك الدين.. مزقته أشلاء وجعلته هباءً.. لكل حاقد أو كارهٍ أو ذي مصلحة في عدائه.. لقد كنت يدًا لأعداء وطنك، والذين قتلوا من الشرفاء الذين دافعت عنهم يوما وعن حقهم.. وضعت يدك مع أصحاب الأيادي نفسها التي تشبعت بدماء أخلائك وأصدقائك الشهداء..

وماذا كان الثمن؟

أنك انتصرت في انتقامك من وطنك؟"

صاح محيي بأعلى صوته رافضا فكرة أن وطنه القديم ما زال وطنه..

لقد تركه وتخلى عنه بعدما تخلى وطنه نفسه عنـــه وتركـــه للذئاب والوحوش والذين ينهبون مقدراته أمام أعين الجميـــع بوقاحة مستفِزَّة..

صرخ محيي.. وصرخ ضميره معه قائلًا:

"ولو كنت قبضت الثمن كمن قـــبض منـــهم.. أكنـــت لتعاديهم.. وما يذهلني بك يا محيي أنك لا تزال تتجاهل رؤية نفسك في مرآة حقيقتك..

يبدو أنك قد نسيت أنك وَشيتَ بأصدقائك في الجامعة من أجل حفنة من المال..

أية قيم كنت تدافع عنها إن لم تأخذ مقابلها كما تحـــب.. كنتَ تقذف في وجوههم سلة قازوراتك..

أنت لا تختلف عنهم.. لماذا إذن تلك الحرب الهوجاء؟!

لماذا تقحم كل شيء جميل ذي قيمة في حربك العفنة؟!

أنت لم تهجر وطنك إلا من أجل مزيد من حريـــة القـــول وكسب المال.. هذه هي الحقيقة..".

صرخ محيي وثار على نفسه.. وهو يحاول إغماض عينيه، لكنه لا يستطيع.. فصوت ضميره يلاحقه وهو يصرخ أمامه يُكذّبه.. يراوده حينًا، ويحاربه حينًا أخرى، وسؤال واحد يكرره..

"إلى أين سينتهي هروبك؟"

نهض محيي من مرقده، وقذف كل ما أمامه بقوة.. وجحيم من الأسى يجتاح صدره كغصة من ألم موجع لا يموت.. وغيمة كاسحة سوداء تقذف به بين جنبات مكتبته المكدسة بالكتب الهامدة، والكلمات المحطمة كالأجساد الميتة، ووقف بين الأشياء المحطمة.. ووجهه كالسماء وقت الغروب.. وذكرياته وصوت ضميره.. تهيم أمام حلبة كتبه التي كتبها بيده وبين صفحاتها على أجساد موتى من ذاكرة التاريخ.. والتي زيّفها بيده.. وبدّل حقيقتها..

واختفت العبارات من وجهه وخرَّ ساقطًا على أرض ليست بأرضه، وفجأة رن الهاتف.. وبلا وعي أجاب.. فسمع صوت مديرة مكتبه تقول:

"لقد حكمت المحكمة ضدنا.. لقد فاز العرب بقضية تشويه قضيتهم وحُكم علينا بالتعويض".

خرَّت الصاعقة على رأسه كجبل هار، فسقطت سماعة الهاتف منه والذهول يأكل رأسه لا يكاد يصدق ما سمعه.. وراح يردد:

"لقد فاز العرب.. وسقطت أنا في دائرة العبث..

كيف حدث هذا؟!

ومنذ متى يستطيع العرب الدفاع عن أنفسهم حتى يكسبوا هذه القضية؟

هل استيقظوا من سباتهم العميق.. على صوت قلمي؟!

ولماذا لم يستيقظوا وطلقات رصاص الأعداء تشق صدورهم.. وتغرق الأرض بدماء الأطفال والنساء والرجال بلا ثمن؟!"

وأحس بسقف منزله وجدرانه تطبق عليه فهرب منها.. بل من نفسه.. من عقله.. من قلبه.. وانطلق مهرولًا كمن مسه جان..

رحل يهيم في الشارع وينظر في وجوه الناس حوله مدهوشًا.. وكأنه يتخيل أنهم يشيرون إلى وجهه ويلقون عليه اللوم مدَّعين أنه كاذب..

ومع خطواته المتسارعة اللاهثة رافقته كلمة كاذب بالسرعة نفسها لتواجهه في قوة وعناد وتطيح بأوهامه وغروره..

فيصرخ ويبعد ويلتف ويعاود طريقه ويرحل.. بينما كل شيء فوق الأرض يلعنه وينبذه.. وتصاعدت لهجة ضميره الموجعة.. فبات مهشمًا تائهًا عابسًا.. وفجأة أوقفته فتاة صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها تتكلم اللغة العربية بلكنة مصرية.. وأشارت لأمها وصاحت:

"ماما.. ماما.. أليس هذا الأستاذ محيي نصر.. كاتب كتاب أسلاف البهائم.. والذي يشتم ويسب العرب فيه؟!"

ونظرت إليه الفتاة باحتقار وقرف وقذفت ما بيدها من آيس كريم في وجهه فلطخت معطفه الصوفي الفاخر..

وصاحت به قائلة:

"لقد قرأت ما كتبت.. وقرأت عكسه من كاتب إنجليزي.. فبحثت عن الحقيقة فوجدتك كاذبًا.. تقول الكذب وتكتب الكذب..

هل تقول لي لماذا تكذب؟ لماذا تقذف أوطاننا بما ليس فيها؟

لما تهتم بالصغائر الحقيرة وتترك الأشياء القيمة النبيلة؟

وما دخل الدين في كراهيتك لوطنك؟!!

يا سيدي الأستاذ.. أنت لم تكتب يومًا للعرب.. بل لآخرين لا يهتمون بحقيقة الأشياء.. لكن بزيفها..".

تنحنح محيي وامتقع وجهه الذي غطاه اللون الأزرق وحبات العرق تتساقط منه.. ونظر لأم الفتاة الصامتة.. لتوقف ابنتها أو تبعدها عن طريقه..

فأشاحت السيدة بوجهها بعيدًا عنه بقرف ونادت ابنتها بأن هذا يكفي.. وقالت بصوت عالٍ باللغة الإنجليزية:

"هو يعلم حقيقة كذبه.. ويعلم إن كان يكتب لمواطني بلده الجديد.. فإنهم لن يقرأوا له؛ لأنه لا يقدم جديدًا عن الصورة السيئة التي في رؤوسهم عن أوطاننا، وإن كان يكتب الكذب ليصل لأهل موطنه الأصلي، فهو يعلم أيضًا أنهم لن يسمحوا لكتبه أن تغادر مرفأ الميناء.. لهذا هو يعلم مليًّا أنه يكتب هذه الكتب لشيء آخر ولأهداف سرية".

صاح محيي بهم وقال:

"يا سيدتي عفوًا.. أنا وطني هو الأرض التي أعيش فوقهـــا.. وتحتضنني.. وتروي ظمئي وتشبع جوفي.. وتحمي ظهـــري.. وتدفعني لمستقبل أفضل. هذا هو الوطن إن كنت تتحدثين عنه ولا تعلمين كيف يكون الوطن.. وما أفعله هـــو أني أتحـــدث بصراحة عن وجهة نظري في هذه الدول المتخلفة، والتي أظنك أنت وعائلتك هربت منها إلى هنا لأنك لم تجدي الوطن، بـــل إنك تعيشين على أطلال وطن، كذبـــة أو خدعـــة لا ســـبيل لتصديقها..

ولا أرى أنك تختلفين عني كثيرًا في الـــشعور بالامتعـــاض والكراهية لهذا الوطن.. لذا أنا لا يهمني رأي هؤلاء الحثالة فيّ.. أما كتبي فقيمتها فيمن يقرأها من أصحاب الحضارات العريقة".

تأمّلته السيدة بحسرة وخجل من موقفه الدنيء.. فهو حتى لا يخفي كراهيته لموطنه الأصلي.. وقالت بهدوء وهي تهز رأســـها بخيبة أمل:

"إن هذا الإنسان لن تغيره أقوال الآخرين ولا نتيجة للكلام معه"..

واستدارت بظهرها له وسحبت ابنتها بهدوء.. ثم التفتـــت إليه بسرعة كومضة البصر وقالت بسخرية:

من ليس له خير في وطنه القديم ليس لـــه خـــير في وطنـــه الجديد.

وتركته وصدى صوها يهز أعماقه الثائرة المتحاربة.. ولملـــم أشلاءه الممزقة وذهب ليواري خيبته..

ودخل إحدى المكتبات المنتشرة بالحي الذي يقطـــن بـــه.. وتجمعت نظرات الناس حوله تراقبه في خطواتـــه وهمـــساته.. وجلس دون أن ينبس ببنت شفة.. بصمت مهيب.. برجفة في قلبه تقذفه ليد الرعب والخوف من الناس ونظراهم التي تلاحقه أينما ذهب..

وفجأة انتفض على صوت ارتطام كتاب أمامـــه ورجـــل عجوز ذي بشرة بيضاء وشعر أصهب وعين زرقاء.. أشار لـــه دون أن يحدثه بأن يقرأه..وكتب له ورقة تـــدعوه للتأمـــل في الفرق بينه وبين قصة الكتاب..

ارتدَّ محيي على نفسه وشعر بوخزات مؤلمة في صدره ورأسه ومن ثم فتح الكتاب ليقرأ قصته والتي تحكي أنه..

كان ذات يوم هناك حية رقطاء.. تسعى بـــين الحقـــول.. ورأت شجرة كبيرة ناضرة يقترب منها الناس ويستظلون بهـــا

ويأخذون من ثمارها ويأكلون.. وتمنت الحية الرقطاء لو كان لها مصير الشجرة.. وأن يقترب منها الناس ويتهافتون عليها ويحبونها كما يحبون الشجرة المورقة.. ويتوقفون عن قذفها أو السعي وراءها لقتلها..

ورأت أن حلها الوحيد هو أن تبدل جلدها بجلد آخر كي يحاكي الشجرة في جمالها وبهائها.. وفي الربيع أورقت الشجرة والتفت هالة بديعة من الأوراق والثمار، بينما توجهت الحية إليها وقالت:

"إنه وقت تبديل جلدي ولعلي بهذا أستطيع أن أغير حالي التعس..".

وغيرت الأفعى جلدها.. وأعطت نفسها لون الشجرة البهي واقتربت منها حتى ينتبه الناس إليها ويسعون إليها ويغمرونها بالحب مثلما يفعلون مع الشجرة المورقة.. لكن الناس نفرت منها وهرعوا بعيدًا عنها.. وأخذت تصرخ وتسألهم:

"لماذا..لقد غيرت ثوبي من أجلكم.. وأصبحت أشبه الشجرة.. في ماذا تختلف عني؟"

هتف أحد المارة قائلًا:

"إن الشجرة تطرح ظلًا وثمرًا حلو المذاق نأكلــه فيــسمن جسدنا.. أما أنت فلا ظل لك سوى لهيب النار، وثمارك هــي سُمُّكِ الذي لا يلبث وينغمس في أوصال أحشائنا بعد أن تفتك أنيابك السامة بأوتارنا".

وانتهت حكاية الكتاب.. وانتهى معها محيي.. وتلاشى بين كلماتها.. ضاع بين ثنايا عباراتهـــا.. وغطتـــه رمـــال المـــرآة المهشمة.. فلا أصبح مواطنًا عربيًّا يقاتل بـــشرف في معركـــة الكرامة ضد الذل والاستعباد والحرية والنهضة والتقـــدم.. ولا استطاع أن يكون البريطاني اللامع.. ذا الجاذبيـــة.. المتحـــضر النبيل.. والذي يسعى لإثراء الإنسانية بعلم مفيد وقلم نظيف.

شجرة التوت

صعد حمزة سلم العبارة وكل خطوة تجر معها إحباط خمسة وثلاثين عامًا وفشل في تحقيق حلم العمل.. فالعمل لم يعد حقًا بل أصبح حلمًا.. حلم بحياة يجد بها قوت يومه.. من مال حلال نظيف يأكل من ثمره ويتزوج منه..

ومضى حمزة في خطواته، وكم كانت ثقيلة مثلما هي حياته الماضية، قبل أن يقرر سفره للخارج بعدما يئس من أن يجد مفتاح الفرج ويجد عملًا، وضنَّت الدنيا أن تُكسبه ولو بريق أمل.. حتى فقد الحب والأرض، ولم يبق في جيبه سوى خيبة الأمل والحزن بعد وفاة أمه..

وفجأة لاحت صورتها في مخيلته، فالتفت بظهره إلى الشاطئ، وهبت نسمة حزينة تناشده الرجوع، وتتوسل إليه بالعودة.. هاتفه صارخة..

"هنا موطنك يا ولدي.. لماذا الرحيل؟"

ارتسمت ضحكة ساخرة على وجهه كأنما يقول:

"وكنت دومًا ابنًا مطيعًا لأمه.. فماذا أعطتني أمي.. سوى الانتظار المرير الذي لا نهاية له.. والإحباط واليأس الذي كاد يجرني لنيران التطرف أو التشرد الأخلاقي.. يا أمي.. إذا حرصت على ابنك.. كان عليك أن تحرصي على حقه في الحياة كإنسان.. كان عيك أن تمهّدي له الطريق وهو يسعى.. لكن الابن سعى وكدَّ وتعب في سنوات الكفاح الطويلة، وبعدما انتهى وجد المفاجأة العظيمة أن لا مستقبل له ينتظره، بل عليه الانتظار في محطة القطار.. والقطار تأخَّر كثيرًا.. تأخَّر أكثر من خمسة عشر عامًا.. وظل الابن عاطلًا.. مخيَّب الآمال.. تأتي الأشياء وتذهب كالريح أمام وجهه وهو صامد.. لكن إلى متى سنظل صامدين.. صامتون منكسرون.. يا أمي لم أتمنَّ أكثر من عمل شريف يحافظ على قيمتي الإنسانية، يكسبني مالًا أفتح به بيتًا، وأزيِّنه بشريكة العمر؛ لنجلب أطفالًا رجال ونساء الغد.. لكن الدنيا وأنت معها تشاركتا في إهمالي وبيعي لهذا البحر.. أتعلمين يا أمي شيئًا.. إنني أشعر بأن في قاع البحر هناك مسكني الذي ينتظرني، وهذا هو مستقبلي..

سمع صوت أنين أمه تدعو الله له بالسلامة وتدعوه أن يعود عن رأيه ويرجع لتحتضنه.. فنظر حمزة لها بتعجب وسألها مصرًّا على رأيه:

"وهل بعودتي ستحلين مشاكلي وتهبين لي الحياة التي أُخذت مني عنوة، وهذا المستقبل الذي مات قبل مولده".

صمتت الأم حزينة فريسة لأوجاع السنين أمام طموحات وأحلام المستقبل.. وتذكرت كم ناهضت الاستعمار والاحتلال لينهض موطنها ويعيش أبناؤها.. وجاء اليوم الذي خرج فيه الاحتلال من أرضها وحررت الحياة من وجهه القبيح، لكنها لم تكن تعلم أنه سيعود ثانية تحت غطاء السحب، فظل يتلاعب بمقدراتها وبمستقبل أبنائها، وضاع منها الحلم وسط حشود قافلات القمامة.. فأصبح عتيقًا تالفًا لا يصلح لشيء ولا يتحمل إنقاذ سفينة اليوم.. وظلت أمه حبيسة الصمت، والجرح يترف، وترى بعينيها النهاية الحتمية للنوم الثقيل الأشبه بغيبوبة الموت.

فرت دمعة حارقة من عيني حمزة، وبسطت على وجهه عبرات من الألم والحيرة، وهمس مرددًا:

"لم يمت حلمك يا أمي.. فحلمك هو حلمي، وكيف لا ونحن اشتركنا في حفلة التقدم والنمو والرقي بأنفسنا وبوطننا الحبيب.. يا أمي أنا لم أفقد الحلم بعد، ولكني أبحث عن حقيقة هذا الحلم، فربما ما نفعله الآن هو أننا نرى الأمور بشكل خاطئ، ولهذا لا نستطيع أن نغير شيئًا أو نحصل على نتائج مُرْضية.. وبسفري هذا أتخيل أنني سأحصل على الإجابة".

طوت أمه صفحات الأمل وسألته متحيرة..

"لست أدري يا بني عما تبحث عنه.. أي حقيقة تقصد؟"

"حقيقة الحلم.. حلمي بوطني الكبير الذي إن لفظ أحدهم أنفاسه يلحق أخاه بيد أبنائه لإنقاذهم.. ألم نتعلم في حياتنا أن موطننا ليس هذه الأرض المباركة فقط.. وأن وطننا الأصلي هو كبير جدًّا.. كبير القيمة والتاريخ والقرابة والدين...".

صمتت الأم كأنما تخفي وراءها جبلًا من الشكوك والارتياب بهذا الوطن الكبير.. وصوت بداخلها يسألها متى كنا وطنًا كبيرًا؟! وهل ما ردَّدته يومًا شعارات على شاشات التلفاز والجرائد اليومية وعلى محطات الإذاعات وعلى ترنيمات الموسيقى كان ينقل حقيقة أم خيالًا أم كذبة نلوكها في فمنا حتى تعفَّنت وأظهرت رائحتها الخبيثة؟!!

وتأمّلته بنظرة طويلة وابتلعت داخلها الكلمات، خوفًا أن تفشي أصل الحقيقة التي تعرفها جيدًا، لكن مع هذا ظلت هذه الحقيقة الكاذبة هي كل أمل حمزة.. فلنجعله يجري وراءها، ربما ينسى جرح موطنه الأصلي، وربما تكون الحقيقة الواهمة هي بالفعل حقيقة صادقة.. من يدري.. ربما تتغير الأشياء وتصدق.

همس حمزة:

"أشعر بما يدور في رأسك يا أمي.. واعلمي أن الغربة هي في البعد عنك.. حتى ولو كنت تحت التراب نائمة.. فروحك للأبد معي.. لكني أعدك بأني سأفعل كل ما بوسعي لإنقاذ سفينتنا، وسأعود لك ومعي الخير الكثير.. ما زال هناك أمل لو صدق الأستاذ عماد المصري والشيخ شهرى في عرضهما لي..

"ألم يؤكد لي أستاذ عماد أني سأرتاح هناك في العمل معه؟ ولأنه مصري نزيه سوف يوصي بي عند الشيخ شهري، وسوف يرفع راتبي كل عام.. فلنترك للأمل مكانًا في قلوبنا يا أمي.. من يدري؟!"

وطوت السفينة مسافات الوقت والمكان ببطء شديد، إلى أن وصلت إلى الضفة الشرقية بعد اثنتي عشرة ساعة، وخرج

حمزة من غرفته، وصعد على ظهر السفينة، وأول ما قابله نسمة حارة ملتهبة، وأشعة شمس حارقة يجري منها كل شيء حي، ويتفتت بسببها الصخر الأصم.. وفجأة سمع صوتًا قويًا غليظًا من خلفه يصرخ به قائلًا:

"يا مصري.. تعال هنا.. أسرع وخذ حقائبك واذهب لعربة النقل التي تنتظرك أنت وباقي الإخوان".

لملم حمزة نفسه المبعثرة، وحزم حقائبه وأسرع مترجِّلًا خلف الرجل الذي يبدو مثل شهر أمشير، متقلب الوجه ساعة مرح وطيب وساعة خشن وفظ القلب وساعة بين هذا وذاك.. وأحس حمزة بقشعريرة في جسده خوفًا من القادم نحوه، لكنه أعاد صمام نفسه وانكب فوق خوفه بفكرة الاستسلام بروح رياضية.. فلا يجب أن يفكر بنفس الطريقة التي كان يفكر بها على أرض وطنه.. أليس هذا هو شرط معرفة الحقيقة؟!

واقترب الكفيل منه وسحب جواز سفره وهو يقول غاضبًا:

"من الآن هذا معي.. وهذه الورقة لتقرأها.. اقرأها جيدًا واعلم أن من يخالف هذه التعليمات في ديارنا لن يرى نور الشمس أبدًا.. فاهم ولا مو فاهم؟!"

هز حمزة رأسه متفهِّمًا بأدب لكلام كفيله الشيخ شــهري وهو يتابع حركات وجهه، ويتمنى من قلبه لو يبتسم الـشيخ أمامه بنفس الابتسامة الوضاءة المريحة للرائي مثل الملائكة، والتي اعتاد عليها في حديثه معه عندما عقد الاتفاق على العمل..

لكن الشيخ شهري.. أغلظ نظراته إليه وسحب أي علامة تشير إلى رفقة في المعاملة المتسامحة التي كثيرًا ما أشار إليهـا في حديثه معه..

كم من مرة قال:

"أنا أُعامل موظفيني مثل إخواني.. ولا فرق.. أنـا أحـسن معاملتهم، آكل معهم وأجالسهم ونذهب للعمرة سويًّا.. نحـن عائلة كبيرة وليس صاحب عمل وعامل.. أليس كذلك يا أخ عماد؟ أنت مصري صالح الخُلق وتقول الحق دومًا؟"

تنحنح عماد بطيبة وأضاف:

"أصدق صدقك يا شيخ شهري.. حقًّا لم أر مثلك أبدًا في معاملته الطيبة الإنسانية مع موظفيه.. اطمئن يا حمـزة أنـت تعمل مع أكرم وأطيب رجل في الدنيا".

ومن ثم مال عماد على حمزة وقال:

"ما بك؟ قل كلمة حلوة للرجل.. ألا تريد الوظيفة وتحلـــم بها؟ أمثالك يقبلون الأيدي ولا يتمنّعون هكذا ويسألون أسئلة كالتي تسألها.. بينما الرجل يبتسم ويتفاوض معك".

وكانت أول كذبة.. فالرجل لا يضحك ولا يبتسم.. وثاني المفارقات جَمَع جميع العاملين في شاحنة كبيرة بلا ستار من حر الشمس، وركب هو سيارته الفاخرة الواسعة المكيفة..

جلس حمزة بين رفاقه وهز رأسه بصمت كأنما يقرأ المستقبل قبل أن يبدأ أولى خطواته.. فسمع أحد الركاب يقول:

"هذا الرجل كذاب كبير.. أترى؟! لقد اتفقنا في العقد على ألفي ريال، والآن يقول إن راتبي في الشهر خمـــسمائة ريـــال فقط".

نظر له آخر باندهاش وقال هاتفًا:

"يا مصيبتي.. ترى أسيعمل معي كذلك؟ أنا عقدي مثـــل عقدك بألفي ريال أيضًا".

تدخَّل حمزة متنحنحًا وقال:

"يا أخي ما هي وظيفتك بالضبط؟"

"أنا فلاح يا سيدي".

نظر للآخر بنفس السؤال فأجاب..

"مثله.. فلاح".

وراح يسأل الباقين فوجد نفسه الشخص الوحيد المؤهَّل جامعيًّا والباقون إما تعليم متوسط أي موظفون أو عمال وفلاحون.. واقترب منه أحدهم، وكان صامتًا طوال الحديث وقال:

"لا تخف.. كلنا هنا في الهوا سوا".

وقع حمزة بعينه عليه وتأمله مليًّا ليتعرف على صاحب الصوت الذي يسمعه لأول مرة فضحك الرجل ضحكة عالية وأضاف قائلًا:

"من الواضح أنك خريج جامعة وأنا مثلك.. خريج كلية الآداب قسم اجتماع، والشيخ شهري مع الأستاذ عماد رأيا أن أنسب مكان لي هو بين الحيوانات في مزرعته..".

توقف الرجل عن الكلام وانفجر ضاحكًا وعيناه تدمعان، ثم أضاف متعثّرا في كلامه:

"يا لله!! أليس أصل الإنسان في الأساس حيوان.. وأنا فشلت في أن أجد عملًا في بلدي يناسب تخصصي.. على الأقل وفَّره لي الشيخ شهري ربنا يكثّر خيره.. وفي النهاية كله علم اجتماع مع إنسان أو حيوان..".

توقَّف الرجل فجأة عن الكلام والضحك وعاد للصمت وحمزة يتابعه بنظرات حائرة متسائلة...

هل سيفعل الشيخ شهري معي كما فعل معه؟ وطل عليه السؤال بسؤال أكبر... هل سأتحمل أن أعمل في شيء غير مؤهلي؟!

ظلت الأسئلة عالقة حتى توقفت الشاحنة وسط الصحراء في دوحة كبيرة خضراء مليئة بالأشجار العالية والنباتات الملونة، وفي آخر الجانب منها تنطلق أصوات الماشية تناشد السامعين بالرحيل أو بالحرية..

وأحس حمزة رغم الحر القاتل بأنه عاد أدراجه لمصر، وهذه الأشجار العملاقة التي تحتضن المزرعة تماثل أشجار الأكاسيا التي كانت تحضن بيته يومًا.. وهبط العاملون.. ووجد الشيخ شهري فرصته لافتراس العمال، فأخذ يسبهم ويقذف بحمم

وبراكين غضب الصحراء كلها في وجوه الناس دون سبب أو علة واضحة سوى مبدأ واحد.. هو أن يفرض سيطرته عليهم من أول لحظة، ويفهمهم أن داخل مزرعته قوانين وشرائع يجب أن تتبع بالقوة والحزم وإلا.. سيقابل العامل بسيل من لهيب الجحيم ويتمنى الموت ولن يأتيه.. وأخذ الرجل يصف لهم حال بعض العمال الذين خالفوا قوانينه، وأخذ يسرد قصة المعاناة حتى جاءتهم المنية، وإلى الآن تملأ جثثهم ثلاجات المستشفيات دون أن يستدل أحد عليهم أو يطلب تسليم جثته ليدفن.. وفتح الأستاذ عماد المصري باب الحجرة وقال:

"هذه غرفتكم للاستراحة".

نظر حمزة للحجرة ثم التفت إليه متسائلًا..

"هذه الغرفة لمن بالضبط؟"

صاح الرجل فيه بقوة وشيطان النار يقفز من عينيه وقال:

"هذه الغرفة لكم جميعًا.. هل هناك سؤال آخر؟"

اغتاظ حمزة من الرجل الكاذب الشيطان في صورة الملاك، هذا أفضل وصف له.. كيف نجح في رسم صورة الرجل الصالح أمامه أول أمس، وكيف هي صورته الآن.. فقال حمزة باقتضاب وحزم:

"لكنك ذكرت في العقد أن لي سكنًا خاصًّا بي وسيارة تنقلني".

قاطعه الرجل مستنكرًا كلامه وراح يسخر منه قائلًا:

"من هذا الذي يحدثني؟! الصغير العويل.. انظر يا رجل.. أنت هنا الآن بين يدي، وجواز سفرك مع الشيخ شهري؛ فالزم الأدب ولا تسأل عن شيء، وإن كنت غاضبًا ابحث عمن يساعدك".

أدرك حمزة زميله الرجل الصامت وقال بتلعثم:

"يا شيخ شهري ويا أستاذ عماد أنتما رجلان طيبان.. وحمزة لم يقصد.. أنتما تعلمان أنه جديد.. والأيام ستعلمه.. سامحه الله يبارك فيك يا شيخ شهري".

نظر حمزة بذهول للرجل وكيف يطلب من الكاذب العفو والسماح.. فغمزه زميله ونظر بابتسامة عريضة للشيخ وهب ملتقطًا حقيبة حمزة وسحبه لداخل الغرفة وهو يقول:

"خلاص يا شيخ.. حمزة سيقعد معي.. أليس كذلك يا حمزة؟"

وأخذ يغمز له بعينيه حتى استسلم وقال:

"حصل خير.. حصل خير".

لكن الشيخ شهري لم يصمت، بل صاح في حمزة مهددًا ومتوعدًا..

"انظر يا مصري.. انسَ العقد.. انس كل شيء.. وتذكَّر شيئًا واحدًا، إنك من اليوم عامل عندي وتحت كفالتي وإياك والضجر وكثرة الكلام.. أنت هنا للعمل فقط مفهوم؟"

توقف برهة ثم نظر لباقي العمال وقال:

"أنا أعلم جيدًا أن المصريين لسانهم طويل لكن افهموا أني أستطيع قطعه".

تأكد حمزة من سوء هذا الرجل، وها هي الوظيفة تتغير بقدرة قادر من مشرف معمل لعامل لحلب الأبقار، ومن راتب ألفي ريال إلى خمسمائة ريال.. واصرخ أيها المصرى أو لا تصرخ لن ينقذك أحد من قبضة كفيلك.. فهو يظن نفسه إلهًا فوق الأرض، بينما سفارتك ليس بيدها شيء تعمله معك، بل ربما تأتي على حساب حقك لأجل الأُخُوَّة والعلاقة الطيبة،

ومن الآخر الزم الصمت وعش مثل العبد المسخَّر لخدمة الكفيل ونيران لهيب لسانه السليط وقوانينه الحادة كحد السيف..

واستسلم حمزة موافقًا لمشيئة الكفيل.. وماذا بها وظيفة عامل؟ إنها أفضل بكثير من جلسته بلا عمل.. وهل وجد عملًا في بلده وتنكَّر لها؟ إذن عليه الرضوخ لأوامره، وأن يقبل بنقضه للعقد وبالراتب الصغير والسكن الجماعي والعمل اثنتي عشرة ساعة..

ومضت الأيام ثقيلة كالدهر، لكنه استطاع أن يقيم صداقة قوية مع زميله الصامت والذي يُدعى جمال.. وبات كلاهما لا يفترقان، ويصبِّران بعضهما على التعب وسوء المعاملة والظلم الذي لا مثيل له.

وذات يوم جاء حمزة وقال:

"ابتسم يا أخي عندي مفاجاة كبيرة لك.. أقدم لك الأخ عبد الله وأخيه وليد.. سيعملان معنا في المزرعة من اليوم".

نظر حمزة بذهول لكليهما وابتلع ريقه في صمت، فقال وليد وهو الأخ الأصغر لعبد الله:

"ما بك يا رجل ألن تسلم علينا؟"

أجاب حمزة متلعثمًا وقال بحرج:

"أعتذر لقد أكلت المفأجاة لساني.. هل لي أن أسألك عـــن جنسيتك؟ هل أنتما سعوديان؟"

ضحك عبد الله وضم كتفه وقال:

"أهذا ما يذهلك؟ أجل نحن سعوديان نعمل عنـــد الـــشيخ شهرى".

تأملهما حمزة في صمت وقبل أن يستطرد في كلامـــه قـــال وليد:

"عندما يأتي عليك الزمن توقَّع أنك ستأتي وستعمل لـــدى الشيخ شهري".

ابتسم حمزة وسلّم على كليهما ورحب بهما:

"أهلًا وسهلًا بكما في بيتكما، وهل يجوز لمثلي أن يستضيف صاحب البيت".

تبادل الأخوان نظرة مرحة، ثم ما لبثا إلا وانفجرا بالضحك وقال عبد الله:

" انظر يا أخي، نحن عمال عند الشيخ شهري، ومثلنا مثلك لا يفرقنا عنك إلا إننا سعوديان وأنت مصري".

صمت حمزة بينما يلوك الفكرة في رأسه ويقول في نفسه:

"ترى هل سيعاملهم الشيخ الشهري مثلما يعاملنا؟"

وقبل أن يستيقظ من غفوته وجد السؤال على لسان صديقه جمال الذي أجاب :

" الشيخ شهري له صديق واحد يعشقه، هو الوحيد من يعامله معاملة طيبة.. المال.. أجل المال.. ولا تتعجب إن قلت لك إنه قد عمل معنا كثير من السعوديين قبل وليد وعبد الله، وجميعهم لم يتحملوا معاملته الفظة الغليظة.. ربما تظن أنه يعاملك هكذا لأنك مصري.. أبدًا.. بل هذا هو أسلوبه مع الجميع".

تدخَّل وليد وقال:

"نحن شباب عاطل منذ مدة وبحثنا عن عمل في أي شيء.. أنا تخرجت من البكالوريا وكذلك أخي منذ ثلاث سنوات، وتخيل أننا لم نجد في بلادنا أي عمل يناسبنا في الوقت الذي يستعينون فيه بعمالة خارجية، تأتي محلنا ويعملون عملنا ويكسبون أرزاقنا وبعدها يلوموننا على الفشل والتخلف، بل إنك لو سألت صاحب العمل لم لا توظف سعودي؟ سيجيبك

ويقول: "السعودى لم يُخلق للعمل، بل خلق لجلسات السوالف تحت الخيام، وبالكثير يعمل مديرًا فاشلًا". صدقني يا حمزة لست وحدك من تعاني ظلم البطالة في بلدك بل نحن أيضًا، والسبب مجهول".

هز حمزة رأسه في أسى وقال:

"وطننا الكبير يعاني أبناؤه من نفس الأمراض والأوجاع.. تُرى متى ستزول الغمة عنا، متى نكون خير أمة أخرجت للناس بينما ما زال بيننا شخص مثل الشيخ شهري وأستاذ عماد؟"

تدخَّل زميله:

"يا لله يا حمزة.. لا تفكر كثيرًا في تلك الأشياء لأنك ستتعب.. ثم عندي لك مفاجاة أخرى، الشيخ - أرضاه الله - وافق على اصطحابنا لمطعم في البلدة الكبيرة".

ابتسم حمزه بسخرية وقال:

"يا له من كرم يا عم جمال.. الكفيل يدعونا للغداء في مطعم!!"

"ليس هذا بالضبط.. لكن الموضوع أن صاحب المطعم رجل لبناني عنده بعض الأشغال في المطعم ومحتاج لعمال.. والشيخ شهري أخذنا نعمل له هذا الشغل".

نظر حمزة لجمال بتعجب وقال:

"والله الشيخ شهري طيب.. وهل يقوم بتلك المجاملة بدون مقابل".

"أنت لم تفهمني جيدًا.. مثلما قلت لك إن صاحب المطعم لبناني وله مصالح كثيرة مع الشيخ شهري".

تنفّس حمزة بقوة متعجبًا من دائرة الزمن.. كيف كان المصريون من ثلاثين عامًا وكيف هم الآن؟!!

وسحبهم الكفيل بلا رحمة للعمل من الصباح حتى المساء دون أي اعتراض.. ومن يستطيع أن يعترض وهم في سجن دائم وهذا العمل الحقير ما زال يمثل الأمل..

وبعد أن انتهى حمزة جلس تحت شجرة يلتقط أنفاسه ويستجمع قواه بعد يوم قاسٍ.. ورفع عينه ليرى سيارة كبيرة تعترض الطريق وتقف باتجاهه مباشرة والشيخ شهري يجري بسرعة نحوها ويلتقط يد الرجل الذي نزل منها بسعادة كبيرة.. وعادت الابتسامة الوضاءة لوجه الرجل والنور الذي يملأ وجهه ويكذب ويخدع الناس به.. فستار الرجل الصالح المؤمن هو أفضل ستار لتخفي شيطان الإنسان الرذيل.. وجلس الرجلان

على مقربة من حمزة، وسمع حديثهما وترحاب الشيخ شـــهري به، وراح يردد شعارات الترحيب والسعادة بقدومه..

"والله يا أخ إياد أنت شرفتنا اليوم برؤيتك وباركت المدينة والديار كلها بزيارتك..".

"شو ها الحكي يا شيخ شهري.. هذي الديار دياري وهذا الوطن وطني.. ولبنان ما عمرت إلا بأمثالك باركــك الله يــا شيخ.. وعلى فكرة أنت مدعو عندنا الأسبوع المقبل إن شـــاء الله في بيتك الثاني بلبنان.. نحن وطن واحد وأرض واحدة..".

"إن شاء الله.. وما الأخبار عندك؟"

"والله يا شيخ منتظرينك تكمل المشروع ويعم الخير علينا".

"إن شاء الله، والله أنا مشتاق كثير لأهل لبنـــان الحلــوين ولأكلهم الأحلى ولا البحر والكورنيش".

"تشرَّفنا يا شيخ.. بالمناسبة عندي طلب منك يا شيخ ربنـــا يبارك فيك".

"إيش تطلب؟ والله مـــن عـــيني دي وعـــيني دي ســـداد لأوامرك؟"

"عندي ثلاثة شباب في حاجة للتوظيف.. فقلت ما في غير الشيخ شهري عنده الحل".

"أكيد.. ووظائفهم عندي.. لا تُقْلِق بالك".

"ألن تسأل بداية عن أعمالهم وتخصصهم؟"

"أسأل؟ كيف هذا؟.. اللبناني مدير.. الله خلقه مديرًا".

"يا شيخ شهري.. تأكّد الأول هؤلاء الشباب ليسوا متعلمين كفاية".

"يا أخ إياد كفاية إنهم من ريحتك..".

نظر له الرجل بتمعُّن وأضاف مؤكدًا:

"يا شيخ.. يعني لن تعمل معهم مثل ما تعمل مع المصريين؟"

تأوَّه الشيخ شهري بقوة وقال:

"يا أخ إياد باركك الله.. أين هؤلاء المصريون من هؤلاء الشباب! والله لأجل عيونك قبلما تغادر الديار لترى بعينيك عقود عملهم ومكان وظائفهم وسكنهم ولا تحمل همًّا أبدًا، والله لأفرش سكنهم أحسن أثاث أمريكي أصلي ومرحبًا بهم في أرضنا وبين إخوتهم..".

ضحك الأخ إياد بفرح وأضاف:

"والله يا شيخ كلما تكلمت معك أتذكر زمان وأيام زمان.. عندما كان المصري مثل الجنيه الذهب، واليوم أترى ما صار لحاله؟"

وأشار بيده لحمزة ووقع بنظره عليه وعلى ملابسه الرثة وحالته التعسة، وتلاقت العيون بين نظرة الشفقة ونظرة الاندهاش.. والتي استفزّت حمزة للثورة.

وأجاب الشيخ شهري وهو ينظر بفخر لحمزة ويقول:

"والله يا أخ إياد هؤلاء المصرين هم سبب كارثة الأمة العربية.. وعليهم الآن أن يحمدوا الله لأننا نأتي هم ونشغّلهم عندنا، والله ولا يحلمون بهذه الوظيفة في بلادهم.. الحقيقة إنهم ناس كمالة عدد.. تعرف يا أخ إياد..أنا غالبًا ما أظن بأن المصرين من كثرة عددهم أشبه بالبهائم.. ولو البهيم له وظيفة غير أكله سيكون للمصري قيمة..".

فز حمزة من مجلسه وقفز فوق الشيخ شهري وهبط عليه بركلات في وجهه حتى نزف الرجل من أنفه، وتجمع الناس من

حوله في محاولة لهدئته أو سحب الشيخ شهري من تحته، لكن دون جدوى، جلس حمزة فوقه وصاح بصوت عال:

"انظر الآن من هو البهيم.. يا بهيم.. المصريون بهائم؟ طيب خذ".

وأخذ يطيح به حتى فقد الرجل وعيه ونظر حمزة للأخ إياد وقال بشفقة:

"اليوم لك.. غدًا عليك.. أحذرك أن تنسى هذه النصيحة.. وتذكّر أن المصري كرامته من كرامة مصر أم الدنيا والعرب معًا.. مصر التي فتحت أبوابها وجامعاتها وخيراتها لكل العرب.. أخيرًا جاء اليوم الذى تُهان فيه ويهان ابنها على يد أخيه".

لف عبد الله ذراعه حوله وسحبه بقوة من مكانه فنظر له حمزة بغضب وللآخرين:

"نحن السبب يا عبد الله.. كنت تقول منذ قليل سبب البطالة مجهول.. هذا خطأ.. انظر لهذا الحقير معدوم الضمير والمروءة والنخوة العربية، هذا مثله مثل كثيرين يملأون بلادنا العربية ويتحكمون في أرزاق الناس.. لقد هربت من أمثاله في مصر، فإذا بي أجد نفس النوع في السعودية.

لكن في النهاية نحن السبب.. انتهى الأمـــر يـــا عبـــد الله وانكشفت الحقيقة المخزية أن الوطن الكبير ليس أكـــبر مـــن محافظات مصر.. والفساد الذي تعاني منه مصر هو ذاته الضياع الذي يعاني منه باقي الدول العربية.. أجل لقد ضـــعنا عنـــدما تغيرت الشهامة العربية وحلت محلها القيم المادية.. من يملـــك المال فهو السيد بينما الفقير لا قيمة له، ونسي الغني أنه لم يكن هكذا لولا تضافر إخوته معه، لكن حتمًا هناك أمل..".

وتوقّف ونظر للوجوه التي تحيط به واليأس يرســـم لوحـــة بائسة على وجوههم.. وكأنما يقولون:

"أي أمل تتكلم عنه.. متى ستعيش الواقع يا حمزة؟ الحقيقـــة هي الواقع.. والواقع يقول إن الأمة العربية باتت دولًا صـــغيرة ممزقة تتنازع مع بعضها حول خداع الأفضلية.. بينما لم يعـــد بينهم الأفضل.. لقد تلاشوا وانتهوا كمـــا انتـــهت فلـــسطين المحتلة.. وهل تستطيع أن تخرجها من فم الأسد؟"

وفجأة أحس بيد تربّت على يده ووجهٌ حزين يتجـــه إليـــه ويقول:

"والله يا أخي لقد صدقت.. نحن من ترك الشر يعيش بيننـــا ويتنفس حتى طغى الفساد كالطوفان في كل شيء".

تأمّل حمزة والمحيطون به الرجل الذي يتكلم بكل هذا العقل وبهذا الضمير الواعي المتيقّظ فما كان سوى ضابط للشرطة، جاء لينهي الصراع بين حمزة وكفيله وليقذف بحمزة في سجن المدينة..

تنحنح الضابط ثانية وأضاف:

"نحن تعلمنا في جامعات مصرية.. وفتحت لنا مصر أبوابها بترحاب وحب بلا مقابل.. هل سمعت يومًا عن التكية المصرية والتي كانت تأتي بالخيرات لزوار بيت الله.. كنتم يومًا بلدًا عريقًا وستظل يا أخي مصر دومًا بلدًا عريقًا.. لكن عليكم أيها المصريون أن تعوا الدرس جيدًا.. يا أخي لو رضيت أن تعمل بهذا العمل الحقير في بلدك لما كان حالك هكذا الآن.. العلم يكمل العمل ولو كان بسيطًا، هذا ما تعلمته من مصر.. المستقبل هو أن تعود لوطنك وراجع أخطاءك وأخطاء أبائك ولا تستسلم.. ويوم أن تعود مصر لمجدها، ستجد كل هؤلاء يتوجهون لها وينشدون في حقها وسيكون بينهم هذا الكفيل الكذاب الذي يسيء إلى بلده ونفسه قبل أن يسيء إليكم بمعاملته السيئة".

دمعت عينا حمزة وأحس بأن الأرض تتزلزل من تحت قدميه ونظر لوجه الرجل الناصح.. كيف يقارَن هذا الخسيس

الوضع.. كلاهما من بلد واحد لكن أي فرق بينهما؟! هذا الإنسان العربي يدفعه لأن يكمل الصورة لتكون حقيقة الوطن الكبير واقعًا نعيشه وليس حلمًا كاذبًا.

أما هذا الكفيل.. وهو رجلٌ يهرب منه الجن قبل الإنس، إنه لا ينتمي لأحد سوى لنفسه وبسببه تخسر الأمم وتتفرق ويسود الظلام والشقاق بين الأشقاء..

وحزم حمزة حاله على الرحيل والعودة للديار والعمل هناك في أي شيء وبأي شكل فكل هذا لا يهم..

لكن الأهم هو أن يعود..

وصعد سلم العبارة ثانية وهذه المرة كانت خطواته أسرع وماضيه المؤلم وذكرياته التعسة في تجربته الأخيرة تدفعه بقوة للعودة وللتغيير.. ودعا الله أن تكون رحلة العودة سريعة.. وأطل بعينيه على البحر الواسع وتخيل معه لمعة مصابيح الشاطئ الآخر بعدما أدركه الظلام، وتذكر شجرة التوت التي كان يقضي تحتها الساعات وهو يذاكر ويحلم.. كم كانت شجرة فريدة من نوعها ورغم تشابه الشجر بظلها لكنها كانت أكرمهم وأغناهم في العطاء والحب، كانت تسع الجميع ممن يحب أن يستظل بها.. أو أن يُطعم من ثمرها الطيب.. ولكن ما

أفجع تذكره عندما شاخت وهزمها الزمن فبات على أهل الحي اقتلاعها، لكنه أصر على زرع شجرة توت أخــرى مكانهـــا، وتعاون أبناء الحي في زرعها وريها...

ونزل حمزة من العبارة ومع أول خطــوة لـــه علـــى أرض الميناء.. قُبض عليه.. واحتفى بين أمـــواج البحـــر الغـــادر.. وتلاشى بين صفوف المنتظرين لميلاد حلم جديد يضيء شمعـــة بحر مظلم.

الفهـــــــرس

هل تجرؤ ٥

ملابس نسائية ١١

طائرة ورق ١٧

ابن الجيران ٢١

طبق العسل ٢٧

أطلال محبتك ٣١

المرآة ٣٥

الهروب ٤١

خيال الحقول ٤٧

من أجل عينيك عشقت الهوى ٥١

انكسار حلم	٥٥
غدًا يوم آخر	٥٩
لمن تشرق الشمس	٦٣
موعد مع النت	٦٧
الفاتنة والصوت الجميل	٧٣
ليلى والكمبيوتر	٨١
لست أنا	٨٩
الكتاب	٩٧
أمي وعمري والقرش	١٠٥
سمر الروح	١١٣
لم يتغير الزمان	١٢٧

جلد الحية ١٣٩

شجرة التوت ١٥٧